

الاسلام والطبيب

بقلم
الدكتور عبد العزيز عسمايل

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ

الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر بكلمة قيمة في هذا

الكتاب نرى أن نحلي جوده بها، شاكرين

لفضيلته هذا التشجيع ، قال حفظه الله :

قرأت لسعادة الطبيب النطاسي عبد العزيز اسماعيل باشا تنفا
بما كان يكتب له بمجلة الأزهر تحت عنوان (الاسلام والطب
الحديث) فأعجبني منه ما توخاه من التوفيق بين معاني بعض الآيات
القرآنية الكريمة وبين مقررات الطب الحديث ، وحمدت له هذه
النزعة العلمية التي لو تحلى بها كل مبرز في فرع من فروع العلم لاجتمع
لدينا ذخيرة عظيم من هذه التطبيقات الثمينة تستفيد منه النابتة الحديثة
زيادة معرفة باعجاز القرآن ، وإيقان بأن الله مافرط في كتابه
من شيء .

لست أريد من هذا أن أقول إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا بالأسلوب التعليمي المعروف ، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الانسان معرفته والعمل به ليبلغ درجة الكمال جسدا وروحا ، وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليسيئروا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه .

مثال ذلك أن الله تعالى قال فيما يتعلق بحفظ النفس من المهلكات : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » فهذا أصل يبني عليه علم صحة الأبدان ، وعلى أهل الذكر فيه تفصيل جزئياته بسرد ضروب المبيدات للصحة ، من الأهوية الفاسدة والدور الرطبة ، والأغذية الرديئة الخ .

مثال آخر : قال جل وعز في مسألة فطام الرضيع : « والوالدات يرضعن أولادهن حواين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » ، فهذه كلية تحتها جزئيات كثيرة يتولى الأطباء تفصيلها ، كبيان أسباب فائدة الرضاعة إن امتدت إلى عامين ، ومضار قطعها قبل الحد المناسب . وهذا ما فعله سعادة الطبيب الجليل ، فقد قال في هذا الموطن : « وقد تغيرت النظريات الطبية في هذه المدة ، فقد كان الأطباء ينصحون بالرضاعة مدة تسعة أشهر فقط ، وأحيانا سنتين ، ولكن آخر تقرير في سنة ١٩٣٣ عن فائدة الرضاعة الطبيعية للجسم والاسنان

يقول : « إن المدة يجب أن تكون فوق السنة ، ويستحسن أن تكون سنتين كاملتين » .

وقد استطرد سعادته في كتابه إلى ذكر مسائل من علوم شتى مما له اتصال وثيق بالمسائل الطبية ، فجاء كتابه على صغر حجمه محتويا على معلومات ثمينة يلذ الاطلاع عليها .

واسنا في حاجة للاشادة بتبريز طيبنا النابغة في الشؤون الصحية والطبية ، وقد جاء كتابه هذا ثمرة تفكير وتدبر فيما يختص بصناعته من الآيات القرآنية ، وهي ثمرة برجى أن يكون لها تأثير عظيم في التدليل على إعجاز القرآن الكريم من الناحية الطبية . وقد رجونا ان يحتذى أصحاب النبوغ في فروع العلم شاكلة سعادة عبد العزيز اسماعيل باشا ، كل فيما تخصص فيه لفائدة النابغة الحديثة التي نود أن تجد في كتاب الله ما يؤثر على عقليتها من أخص ما تشغل به في دراستها . والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ؟

محمد مصطفى المراغى

كلمة للفيلسوف المصري

الأستاذ محمد فريد وهدي

لا مشاحة في أن سعادة الدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا
يعتبر علما من أعلام الطب في الشرق ، ومكانته اليوم من هذه
الصناعة الشريفة تشبه مكانة ابن سينا وأبي بكر الرازي في العهد
الذهبي للعلم عند العرب . وقد حصل على هذه المنزلة الرفيعة بصفات
عقلية ونفسية امتاز بها بين معاصريه ، فهو مع ما عب من ينايع
العلم الغربي بين ظهرائه أثمته وأقطابه لم تتأثر نفسيته العربية
بشيء من بهرج تلك المدنية ، وبخاصة في ناحيتها المادية . فقد رحل
في طلب العلم مصريا مؤمنا ، وعاد كما ذهب مصريا مؤمنا ، وهذه
ميزة لم يفز بها الا القليلون ممن مكثوا في تلك الربوع قدر ما مكث ،
ونهل من عيلم علومها قدر ما نهل .

على أنه لم يكتف بأن ذهب وعاد سليما في جوهره ، حريصا
على شرقيته ، قويا في عقيدته ، ولكنه زاد على هذا ميلا إلى تعزيز
هذه الصبغة فيه ، وبشأ في غيره بحاله وقاله وقلبه . فما كاد يجد
فرصة في الوقت لاطهار خبيثة نفسه في خلال أعماله الكثيرة ،
حتى نشر فصولا في جريدة البلاغ تحت عنوان (الاسلام والعلم

الحديث) كان لها وقع عظيم في نفوس القارئین ، وشغفوا باقتنائها إلى حد أنهم حفظوا الأعداد التي نشرت فيها تلك المقالات للرجوع إليها عند الحاجة

فرايت أن مجلة الأزهر أولى بحفظ هذه المعارف القيمة ، وإذاعتها للعالم الإسلامي في الخافقين ، فعملت على نشرها تباعا حتى تمت ، فكانت فائدة القراء بها أجزل ، ودائرة شيوخها أوسع ، لأن المجلة تمثل بين الكتب ، ويسهل قراءتها وتداولها إلى ما شاء الله ولكن أبت همّة الباشا الطبيب إلا أن يجعلها كتابا مستقلا ، فأوعز بطبعها ، فجاءت سفرا أنيقا جمع إلى جمال المظهر جلال المخبر ، فاستحق من قراء العربية ما هو أهله من شكر جم ، وثناء عظيم لم يقتصر طيبينا الكبير على البحوث التي يدل عليها عنوان كتابه ، ولكنه تناول في جولاته العلمية مواضيع جليلة اقتضتها المقام اقتضاء منطقيا ، فأتى بجانب الكلام عن أسرار الوضوء والصيام ، ومضار الخمر مثلا ، كلاما عن الحياة من حيث هي ، وموضوع خروج الحي من الميت ، وهو موضوع بيولوجي محض نظر سعادته إليه تحت ضوء القرآن ، وبحث في تكوين الجنين في بطن أمه ، وفي الأطوار التي يدخل فيها ، وهذا أحد مطالب علم خاص يدعى علم الأجنة ، ونظر في خلق آدم وأدوار حياة الإنسان ، وبدء الخلق ، وهو من أهم أغراض علم الاتروبولوجيا . ثم استطرذ إلى ذكر النوم وضرورته للحياة ، وإفرازات الجسم وحاجة الحياة إليه ،

ولقاح الأزهار ، وتأثير العواطف في الجسم ، وهذه كلها بحوث تتعلق بعلوم مختلفة

ثم تشي مع منطق البحث الذي هو بصده ، فأداه إلى مسائل عويصة من علم الكلام كالقضاء والقدر ، وخلق عيسى عليه السلام ، وعلم الغيب والفرق بين المعجزات والمخترعات . ولم يحجبهم سعادته عما أداه اليه الاستطارات حتى تكلم في حكمة المصائب التي تتعاور الانسان ، وهو من أخص مسائل الفلسفة . تناول سعادته كل هذه المواضيع بحرية واستقلال ، في النظر والاستدلال ، فتأدى إلى نتائج جديدة بانعام الروية ، وطول التفكير

هذا الكتاب يفتح للتدبرين في آيات القرآن الكريم مجالا فسيحا لفهم آياته المشيرة إلى الكائنات الأرضية فهما يسيغها العلم الحديث ، ويستهي عقول الذين يقدرونه . فما أجدره أن ينتشر بين طلبة الجامعة ليكون باعشا لهم على تلاوة القرآن ، والاستهداء بنوره ، وما أخلقه أيضا أن يذاع بين طلاب العلم الديني ليجيب اليهم العلم الحديث ، ويثبت لهم أنه أصبح أداة لاظهار مكنونات الكتاب الكريم ، واذاعة آياته ، وإثبات إعجازه !

من أحسن ما تقدمه للقراء مثالا من هذا القليل ذهابه في تفسير معنى العلق في قوله تعالى : وخلق الانسان من علق ، إلى أن المراد بها الحيوانات الميكروسكوبية السابحة في مادة الرجل لا الدم المتجمد كما يذهب اليه المفسرون ، فقال :

« يقول تعالى : إنه يكون أولا نطفة ثم يصير علقه ، وصحيح أن شكله يكون مستطيلا مثل العلقه تماما ، ويستمر كذلك فى الأربعة الأسابيع الأولى تقريبا . وإذا عرفنا أن طوله لا يزيد عن خمس السنتيمتر الواحد ، وأنه لا يميز بالعين المجردة تماما ، وأن أول ميكروسكوب عملت سنة ١٦٨٣ أى بعد ألف سنة من نزول القرآن ، عرفنا أنه كلام الله تعالى

« على أن الجنين يصير بعد ذلك مستديرا بغير انتظام ، ومكورا ، ويبقى كذلك بضعة أسابيع ، وقد سماه الخالق مضغة لكثرة الشبه بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة ، وبعدها تظهر العظام واللحم (العضلات) التى تتصل بها كما وضعت تماما .

« ويعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاث أغشية سماها ظلمات ، هى الغشاء المنبارى . والخوريون ، والغشاء اللفائفى ، مع أنها لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق ، وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة ،

نقول : مثل هذه المعجزة العلمية ولها أشباه كثيرة فى السفر الذى بين أيدينا ، مما يجب أن يذاع بين أهل العلم الجديد ، فإنه من أفضل الذرائع لتحبيبهم فى تلاوة القرآن ، وفى تلاوته كل ما نرجوه لهم من سعادة الحياتين ؟

محمد فريد وهبرى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أنزل الله القرآن الكريم هدى للناس في أمور دنياهم وأخراهم ،
وقد جعل معجزة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن إعجازه
فصاحته التي اعترف بها العرب وهم أعلى الأمم كعبا في البيان ،
أما المتأخرون أمثالنا ، فأكثرهم لا يقدر الفصاحة حق تقديرها
لعدم تبجرهم فيها ، ولذا كان من الضروري إظهار إعجاز القرآن من
نواح أخرى ؛ فالقرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك ، ولكنه
يشير أحيانا إلى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم . وبما أنه صادر
من واضع السنن كلها ، كان جميع ما جاء فيه حقا لا شبهة فيه ،
وإن لم يكن ذلك مدركا وقت نزوله إلا على طريق الاجمال
أو التأويل ، لعدم استبحار العلوم إذ ذاك ؛ ولكن مع الترقى
في العلوم قلما كان يعتمد إلى تأويله ، وكثير ما وجب أخذه على
ظاهره في ذلك العهد .

فقوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون
تسبيحهم » : هذه الآية لا يمكن أن يكون العرب الأولون قد فهموها
إلا من طريق التأويل المؤدى إلى معنى خضوع كل شيء لعظمة الله

حتى الجداد ، مع أن علماء الطبيعة يشبتون الآن حركة دائمة لا تنقطع في ذرات كل شيء لا تراها العين ولا تحس بها سائر المشاعر .

وقوله تعالى : « خلق الانسان من علق » : شبه الحيوان المنوى بالعلق مع أنه لا يرى إلا بالميكروسكوب . والعبرة من هذه الآية لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين حتى اكتشف الميكروسكوب

كل هذه الآيات الكريمة وكثير مثلها لا يفهم شيئاً من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة ، ومن يفعل ذلك يظهر له إعجاز القرآن بطريقة أقرب إلى إقناعه من فصاحته ، لأنه عالم ببعض العلوم وجاهل بالفصاحة .

وهكذا يؤمن بالقرآن من لم يؤمن به ، ويزداد إيمان المؤمنين . ويجب أن أنبه إلى نقطة هامة ، وهي أن العلوم مهما تقدمت فهي عرضة للزلل ، فينبغي أن لا يطبق على الآيات الكريمة إلا ما يكون قد ثبت ثبوتاً قطعياً ولم يقبل الشك ، فكثير من النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل ، وهذه لا يجوز تطبيقها على الآيات حتى ولو اتفقت مع ظاهرها ، إنما يطبق منها ما يكون قد اجتاز دور النظريات وصار حقيقة ثابتة لا شك فيها ، فرقم $5 \times 5 = 25$ لا يمكن أن يكون غير ذلك مهما تقدمت العلوم ، وكذلك كثير من نظريات الطبيعة والهندسة ، وقليل من الطب ، أما النظريات الكثيرة مثل نظرية الذرات والجاذبية والنسبية

ومذهب دارون وأغلب نظريات الفلك ، فلم تعتمد طور النظريات ،
وقد تتغير وتبدل .

وكما يقول فضيلة الأستاذ الأبر الشيوخ المراقى : « يجب أن
لا نجر الآفة إلى العلوم كى تفسرها ، ولا العلوم إلى الآفة ، ولكن
إن اتفق ظاهر الآفة مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها » .
إن العالم كثر الاغترار بعلمه ، فإذا لم يتفق ظاهر الآفة
وما يعرفه من النظريات ركن إلى علمه وشك فى الآفة أو أولها ،
مع أن كل علوم العصر الحاضر لاتعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لحقائق
الأشياء ، فقد انتفع الإنسان بالكهرباء والحرارة والضوء ، ولكنه
لا يعرف شيئاً عن حقائقها ، فهو يعرف كثيراً عن سننها ، وسيزداد
معرفة بها بتقدم العلوم ، ولكنه لا يعرف عن كنهها أكثر مما
يعرف عن الروح والحياة ونظام السكون .

فكل آفة كريمة لا تتفق ونظريات العلوم يجب أن تترك حتى
تتقدم هذه العلوم ، فخلق آدم من طين مثلاً لا يتفق ومذهب دارون
وغيره ، ولكن الأخيرة قائمة على نظريات ، وهى كما قدمنا عرضة
للتغير . ولم أعثر للآن على آفة واحدة لا تتفق وأفة حقيقة علمية
ولمعرفة مقدار الخطأ والبعد عن الحقيقة الذى تعرض له
النظريات ، أضرب مثلاً بسيطاً لذلك :

إذا جلس شخص عاش منذ مائة سنة لا يعرف شيئاً عن الراديو
أو التليفون فى غرفة فيها آلة تليفون متصلة بمحطة إذاعة لراديو ،

وبالغرفة المجاورة آلة راديو ، حتى إذا تكلم الشخص سميع صوتاً يجيبه في الغرفة المجاورة ، فلا شك أنه يحزم بأن هناك إنساناً عاقلاً يتكلم ، وقد يجهد عقله ويعمل في ذلك تجارب كثيرة ؛ وبما أن ذلك المتكلم يحكى له كل كلام يوجهه إليه ، فلا يبقى في ذهنه أى شك في أن الغرفة المجاورة فيها إنسان . ومصدر الخطأ أن الوسيلة للتأكد من وجود إنسان في الغرفة المجاورة لا تنحصر في حاسة السمع وحدها ، ولكن للنظر واللمس نصيب منها ؛ وبما أن كل التجارب التي قام بها الشخص توجب عليه اعتقاد وجود شخص بالغرفة على حسب معلوماته القاصرة ، فالنظرية التي بنى عليها ذلك الحكم بعيدة عن الحقيقة إلا اتصال الغرفة بالإنسان ، مع أن الفرق بين وجود إنسان بالغرفة المجاورة وبين شيء متصل بالإنسان ربما كان في لندن ، فرق كبير جداً .

ولا يمكن اتقاء مثل هذا الخطأ ، لأن الشخص لا يعرف واسطة اتصال مثل التليفون والراديو قبل وجودهما . كذلك أغلب نظريات علم الفلك وغيره ، فقد تقدم علم الفلك حتى صدقت تنبؤات العلماء بعد مئات السنين وبدقة مذهشة ؛ وقد أقاموا على تجاربهم نظريات ، وكلما اجتهدوا في التجارب جاءت النتيجة محقة لما كانوا يتوقعونه في أكثر الحالات ، ولكن كما أن الشخص الذي كان يحاول معرفة مصدر الصوت كانت تجاربه تأتي صادقة كما لو كان هناك إنسان في الغرفة المجاورة ، كذلك كانت تجارب العلماء في كثير من النظريات تأتي مصدقة لما كانوا يتصورون ، وقد تكون خطأ في

أساسها ، ولكن فيها اتصال بعيد بالحقيقة بعد الشخص الموجود في لندن عن الغرفة المجاورة .

وبالاختصار فالطريقة الوحيدة للتثبت من وجود شيء ، ليست هي الاستنتاج العقلي ، ولكن استعمال كل الحواس المجردة وغير المجردة ، ومع ذلك فتسكون النظريات عرضة الزلل ، لأن مدارك الانسان محدودة ، وهو لا يتصور ما غاب عنه .

يتضح مما سبق أن هناك آيات كثيرة لم تتقدم العلوم لتفسيرها للآن ، ولم أحاول أنا ذلك ، فقله تعالى : « فانظروا كيف بدأ الخلق » لم تتقدم العلوم لمعرفة تفصيلات معانيها . وقد حاولت أن أفسر بعض الآيات المتعلقة بعلوم النفس أيضا ، لأن ذلك من اختصاص الطبيب ، وكل ما أرجوه أن يقتدى بي إخواني الاختصاصيون في العلوم الأخرى ، على شرط أن يلاحظوا القواعد التي أسلفتها ، وأن لا يفسروا من الآيات إلا ما يتفق والحقائق الثابتة .

بالمناقشة مع إخواني وجدت أن هناك سؤالين يجب الإجابة عليهما قبل البدء بالتفسير لعلاقتهما المباشرة به :

(أولهما) ما الغرض من خلق هذا الكون ، وما حكمة وجودنا ؟ إن طبيعة عقل الانسان أن يسأل عن حكمة وجود كل شيء ولا يستثنى من ذلك الكون كله ، مع أن مادة العقل التي يريد بها أن يكشف

الكون هي جزء من هذا الكون نفسه ، وتلعب دوراً فيه ، واللاعب لا يمكنه أن يمثل دور المتفرج .

ولنضرب مثلاً :

شخص من أواسط أفريقيا حضر ليمثل دوراً بسيطاً جداً في رواية ذات فصول عديدة في لندره ، وهو لا يعرف شيئاً عن اللغة ولا عن الرواية ، ولكنه يمثل دوره المطلوب منه ، فان كان ذكياً فقد يفهم معنى الأشياء المادية التي تشترك معه في دوره ، فيعلم معنى صور الجبال والأودية والحيوانات الخ ، ولكنه من المستحيل أن يفهم معنى الرواية ، لأنه يمثل دوراً لا يعد شيئاً مذكوراً فيها ، وهو جاهل باللغة التي كتبت بها ، وغائب عن المسرح أغلب الوقت ؛ كذلك الانسان مهما ارتقى عقله ، فقد يعرف كثيراً من السنن الطبيعية المتعلقة بالمادة ، ويعرف أشياء عن الكواكب الخ ؛ ولكنه لا يعرف لغة هذا الكون وسننه غير المادية ؛ ولذا لا يمكنه أن يفهم شيئاً عن الوجود الذي هو جزء صغير منه ، ومدة حياته لا تبلغ جزءاً من مئات الملايين من عمر الكون ، وكل ما يمكن الانسان أن يظفر به هو أن يعرف المهمة التي يقوم بها فيه ، وأن يتقنها ؛ وهذه المهمة قد علمها الله لنا بقوله : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » .

وأما حكمة وجود الكون وعظمته فلم نعط الحواس اللازمة لمعرفة ما أسعد الشخص الذي يؤدي مآذبه إليه ! ولعمري إن

ذلك يستغرق كل قواه العقلية والمادية ، ولا يترك له أى بقية يشتغل بها
فى أشياء أخرى ، كل ميسر لما خلق له ، « وخلق كل شىء فقدره
تقديرًا » ويقول الطبيعيون : « الطبيعة لا تسرف » .

(ثانيهما) ما معنى القضاء والقدر مع أن اختيارنا ظاهر ،
وما معنى مجازاتنا على ما نفعله إذا كان هناك قضاء وقدر ؟
إن علماء الطب يمكنهم أن يعرفوا سير الأمراض ومدتها الخ
بمعرفة بعض السنن الطبيعية ، فإن أخطأوا فنلنقص في علمهم ؛
كذلك المهندس عند ما يشيد جسراً يعرف مقدار السنن التى
يمكنها إذا عرف مقدار الضغط عليه يومياً والعوامل الطبيعية
الأخرى .

فالمبدع الأول خلق الانسان من طين ، وعلم ما يدخل فى
تركيبه ، وسن له سنة التناسل ، وخلق له الأحوال المحيطة به ، ووضع
لها سننًا ، وقدر تأثيرها عليه ، وهل أفعال الانسان فى الحقيقة
الا خضوع منه لهذه الأحوال والسنن وإن توهم أن له اختياراً فيها ؟
فاذا أتى البرد وكان عنده ملابس ثقيلة ، فإنه يلبسها . هذا العمل
ظاهرة الاختيار ، ولكنه عمل مضطر عليه عند ذى العقل السليم
أوجبه البرد .

ولنضرب مثلاً آخر :

تاجر مضطر لبيع بضاعته وتعرض عليه قيمتان لها ١٠٠ قرش
و ١٥٠ قرشاً ، فلا شك أنه يبيع بأكثر القيمتين وبعد عمله اختيارياً ،

ولكنه في الحقيقة اضطرارى ومطابق لسنن لا تتبدل ، وإن لم يفعل ذلك عد مجنونا . وقد تتعقد أفعال الانسان ويضطر أن يفكر كثيراً قبل الاقدام عليها ويعد عمله هذا اختياريا ، ولكنه مبنى على سنن مقررة ، ونتيجة لكل اختياراته الماضية ، وتركيب مخه والأحوال المحيطة به . ولو علم شخص تفاصيل الأمور لأخبر بما سيستقر عليه الرأى فى كل منها ، كما يعلم الكيماوى نتيجة التفاعل بين مادتين إذا علم تركيبهما .

هكذا ما أجمع عليه علماء النفس . وخالق الوجود والسنن كلها عالم بكل ما سيحصل للكائنات فى مستقبل حياتها .

فالعلقة الصغيرة (النطفة) التى يقل قطرها عن عشر المليمتر الواحد ، تمثل ملايين الصفات ، وعلقة القرد مثلا والانسان لا يختلفان ظاهراً فى الشكل مع أن كلا منهما تمثل كل الصفات التى تميز الواحد عن الآخر ، وهذه لا حد لها ، كذلك لا تختلف علة شخص عن شخص آخر ، مع أن الزمن والتغذية كفيلا أن إذا ما أثرا عليهما أن يصيرا شخصين مختلفين تماما ، وذلك طبقا لسنن ثابتة لا حصر لها ، فالفروق المتنوعة التى تملأ مجلدات قد اختزلت فى حجم النطفة .

فالله جل جلالته وقدرته وقت بدء الخلق كان يعلم كل ما سيحدث للانسان وغيره من الكائنات ، فان مستقبل الكون مقدر منذ الأزل . ونحن على مقتضى عقولنا نفرق بين الحاضر والمستقبل ، والله

وقت خلق النطفة أراد إيجاد الإنسان الكامل لا الناقص ، ولكننا
لضعف إدراكنا لا نعرف ذلك ، فنقف عند الحاضر . أما المبدع
الحكيم فيعرف مستقبله كله جملة وتفصيلا . فالإنسان في
قصر نظره كالمتفرج على (السينما) يرى المنظر الحاضر ويجهل
ما بعده ، على حين أن المناظر المستقبلية موجودة ومعلومة لصاحب
السينما ، ولكنها غيب بالنسبة للمتفرجين ، فالخالق ، وله المثل الأعلى .
قد قدر منذ الأزل كل ما سيحدث في الخليقة ، وهذه التقادير
تتولى إبرازها السنن التي سلطها الله عليها منذ وجودها ، ولا يتم هذا
الإبراز بدون حوادث شتى تعترض الإنسان وغيره من الكائنات قد
تعتبر مصائب . وهذا معنى قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض
ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير »
هذا هو معنى القضاء والقدر ، ولا معنى له غير ذلك في رأينا .

قد يقال : وما الفائدة من عقولنا وتفكيرنا أمام هذا القضاء والقدر ؟

الجواب : أن تفكيرنا هو هذا الجزء الاختياري الذي ميز الله
الإنسان به عن سائر المخلوقات وجعله أساسا للجزاء ، وقد يكون
هو المقصود من الآية الكريمة : « إنا عرضنا الأمانة على السموات
والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان
إنه كان ظلوما جهولا » والله أعلم ، ولكن هذا التفكير لا تأثير له
في سير القضاء والقدر ، فالإنسان حر في أن يفكر كما يشاء ، ولكن
لا يمكنه أن يأتي أفعالا لم تقدر عليه ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

والسؤال الثاني وهو : لم نجازى على ما قدر لنا ؟
الجواب : أننا نجازى على ما يقع عليه اختيارنا ، سواء أتم
أم لم يتم ، وسأضرب لذلك ثلاثة أمثلة :
(أولها) شخص يريد القتل ويفكر فيه ويتربص الفرص
لتنفيذه ، حتى إذا سنحت له ارتكب الجريمة ، فهذا لاشك مجرم
بتفكيره أى بجزئه الاختيارى ، وقد أنفذ جريمته لأن القدر وافق
ما عزم عليه .

و (ثانيها) شخص يخاف ربه ويطيع أوامره ، ولكن حدث له
أن وقع مرة تحت تأثير انفعالات نفسانية شديدة أضاع معها رشده
فارتكب جريمة القتل ، فلما تاب إليه رشده ندم على فعلته ، فهذا
الرجل ارتكب الجريمة بجوارحه فقط ، ولكنه لم يقتل بضميره ،
فقد ثبت طبيياً الآن أن الانفعالات الشديدة تحدث زيادة إفرازات
فى بعض الغدد الصماء تؤثر على الضغط الدموى وعلى المخ ، وقد
تحدث تشنجاً عصبياً أو شللاً وقتياً فى قوة الإدراك (غيبوبة)
يأتى الشخص فى أثناءها من الأفعال ما يستنكره فى حالته العادية ،
والخالق يعلم حالته ، ويعلم أنه قتل لأن القتل كتب عليه ولا مفر
له من ذلك ، ولكنه لم يقتل بضميره .

و (ثالثها) شخص عاص لربه ينتهز الفرصة للقتل ، ولكن
الفرصة لا تسنح له ، فهو مجرم بضميره ولو أنه لم يقتل ظاهراً ؛
والحقيقة أنه لم يقتل لأن القتل لم يقدر عليه ، ومن لم يقدر عليه

القتل فلا يمكن أن يقتل مهما حاول ذلك ، والله يعاقبه بما يشاء على نيته » وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ؛ فقد يغفر لصاحب الذنب الواقع ويعذب من لا ذنب له في الظاهر ، والله يعلم ما يحول بين المرء وقلبه « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . وإذا أيقنا أن عجلة القضاء تسير سيرها رغم إرادتنا ، اطمأنت قلوبنا ، وعلينا السر في أن المتقين قد يصابون كما يصاب غير المتقين ، ولكن الفرق أن تفكيرهم وصبرهم يحول مصائبهم إلى نعم في نظرهم « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (أى امتحانا) « ونبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » .

الخلاصة : أن الخالق الذى يقول : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » والذى يعلم السر في السموات والأرض ، لا يظلم أحداً ، فلتطمئن قلوبنا ، ولشق بعدله ، ولنكتف بأن نستعين بأحدى السنن غير المادية وهى الدعاء ، تالين قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وبعد : فانى فى هذا المقام أعترف بفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأبر الشيخ المراغى ، لأنه أول من شجعنى على نشر هذه المقالات ، وكان يستمر فى التشجيع كلما ظهر شيء منها ، ويمدنى

بأفكاره القيمة التي كنت أقدرها كما يقدرها الناس كافة كل التقدير
وكذلك أشكر صاحب العزة الأستاذ فريد بك وجدى لتشجيعه
وتصحيحه الكتابات والآيات ، ولو أنه معروف لكل أنه خلق
للعلم وحده ، ونعم عمل العاملين ؟

الحياة تحت ضوء القمر

« وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم »
(سورة البقرة الآية ٢١)

الماء ضروري لاستمرار الحياة والنمو ، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش بدون شرب الماء بضعة أيام مع أنه يعيش على الماء فقط مدة شهر أو أكثر ، والنباتات والجراثيم وكل شيء حتى يهلك من الجفاف ويحيا بالماء

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقشائها وفؤومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير... » الآية ٦٠

هذه الآية الكريمة معناها — والله أعلم — أن اللحوم والأسماك والألبان الخ أفضل في التغذية من البقول والقمح والذرة ، وليست الأفضلية في مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم في كل نوع ، لأن هذا يجب ألا يكون سبباً مهماً للأفضلية . فمثلاً المواد الزلالية في اللحوم من ١٥ الى ٢٠ في المائة ، وفي

اللبن ء فى المائة ، ولىس هذا معنى الأفضلية ، لأن معناها أن اللبن غذاء مخفف وبتركيزه يصير مثل اللحوم ، وكذلك اللحوم باضافة ماء عليها تصير مخففة مثل اللبن . ولكن الأفضلية هى فى نوع المواد الزلالية فى كميتها ، وأن كل جرام من المواد الزلالية فى اللحوم أفضل من جرام من المواد الزلالية (Proteins) فى القمح والذرة الخ

وقد اهدت أخيرا لجنة الأبحاث بالبحلثرا Medical Research Committee الى أن قيمة المواد الزلالية تختلف فى نوعها وفى المقدار منها الذى يمنع المواد الزلالية المكونة الأنسجة من أن تحترق . وبعد أبحاث كثيرة ظهرت لها فوائد عملية فى بعض أمراض مثل البلاجرا ، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة ، مثل البيان الآتى :

لحوم	لبن البقر	أرز	بطاطس
١٠٤	١٠٠	٨٨	٧٩
فول	دقيق	ذرة	
٧٠	٤٠	٣٠	

إن هذه النتيجة التى لخصها القرآن الشريف لم تظهر حقيقة

ثابتة طبييا الا منذ سنوات قليلة ، وكانت النظرية السائدة قبل ذلك أن الأطعمة وقيمتها بالنسبة للمواد الزلالية هي مسألة كمية لا مسألة نوع

وقد ظهر من أبحاث لجنة الأبحاث الملمكية بانجلترا في التقرير الثالث سنة ١٩٣٣ والأخير ، أن البقول (Cereals) يضر الاكثار منها بالأسنان ونموها ، حتى إن التقرير ينصح بعدم إعطائها مطلقا للأطفال ، وبالقلة منها للكبار ، ويقول إن الاكثار من البقول من أهم العوامل في تسويس الأسنان

« وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة » الآية ١٦٣

الروح مهما كانت حقيقتها هي هبة من عند الله ، ولكنها لا يظهر تأثيرها الا في نوع مخصوص من المادة ، وهذا النوع من المادة يختص بأن يكون في حركة دائمة من التحويل (Metabolism) وهذا التغير الكيماوى الدائم فى كل خلايا الانسان وكل دابة لا يمكن علميا الا اذا كان فيه ماء بمقدار يختلف حسب نوع الخلايا ، وهناك بعض أجزاء من الجسم الحى يقل فيها الماء جدا ، وهذه أغلبها افرازات متجمدة ليس فيها حياة مثل الأظافر ، وأعنى أنها ميتة ، وهذا أيضا معنى الآية

الكرامة » وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، فليس المراد أن الماء سبب الحياة مطلقا ، ولكنه شرط أساسى فى المادة التى تظهر فيها الحياة ، وهناك فرق بين الاثنين . ومثل ذلك مثل المسرة (التلفون) فإذا كان اثنان يتكلمان على مسافة طويلة فالسبب فى الصوت الذى يسمع هو المتكلم من الناحية الأخرى ، ولكن عدة المسرة شرط أساسى لسماع الكلام ، حتى إذا طرأ عليها طارئ لا يمكن سماع أى شيء ، كذلك الماء شرط أساسى لاستمرار الحياة فى الجسم ، ولكن الحياة والروح هما مثل المتكلم شيء آخر مطلقا لا تعرف حقيقته ، ولكن تغيير المادة بفقد عنصر أساسى مثل الماء ، الذى يؤدى الى الموت بالنسبة الى الجسم المادى ، يمنع وجود الروح والحياة ، وقلة الماء فيه تؤدى الى عدم وجود الروح والحياة ، أى الموت بالنسبة الى الجسم المادى

« يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله » الآية ١٧١

هذه الآية الكريمة تنص على ألا تؤكل الميتة ولا الدم ،

فالحيوان الميت لا يموت إلا لسبب : مثل المرض أو الشيخوخة ،
فإن كان لمرض فما لا شك فيه أنه لا يزال في الجسم نتيجة
التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للإنسان حتى بعد أن
يعقم من الجراثيم بطريق النار ، فالجسم الميت في هذه الحالة
يشبه الغذاء المتخمر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة لا يزال
مضرا بالإنسان ، وربما أدى الأكل منه إلى الوفاة .

وكذلك الدم ، فإنه نسيج أغلبه وأهم عنصر فيه وهو
السكرات الحمر خلايا حية ، وفيه من إفرازات الجسم ما هو
معد للإفراز بواسطة البول والعرق الخ . فالدم في الحقيقة
مزيج من مواد قليلة مفيدة للجسم . ولكن أغلبه مواد مضرّة
ويجب أن تفرز ، وإذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم مريضاً
كان أكل الدم أشدّ ضرراً ، وكان بقاءه في أنسجة الحيوان
قبل أكله مضراً جداً لما فيه من مواد مضرّة تحدث تخمراً
بسرعة في أنسجة الحيوان مثل العضلات ، فيكون لحمه غير
صالح للأكل .

وأما إذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة
بالمريض ، لأن الشيخوخة معناها انحلال أحد الأنسجة قبل
الأنسجة الأخرى ، فتؤدي إلى انحلال الكل . وانحلال أحد

الأنسجة لا يأتى إلا لضعف طبيعى فيها ، أو بمرض تدريجى غير منظور يحدث تغييرات فى لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم .

ورب قائل يقول : إن الميتة تؤكل يومياً فى البلاد الباردة مثلاً ، وكذلك الدم ولحوم الحيوانات تؤكل بدون ذبحها وتصفية دمها بدون ضرر ظاهر . والجواب على ذلك أن ضرر التخمر يقل كثيراً فى الأقاليم الباردة ويزيد فى الأقاليم الحارة ، والدين الإسلامى أنزل للعالم كله بما فيه الأقاليم الحارة التى يحدث التخمر فيها بسرعة مدهشة . إذاً فمما لاشك فيه طبياً أن لحم الحيوان السليم الذى يذبح ويصفى دمه أحسن غذاء وليس فيه أقل ضرر ، بخلاف الحيوان المريض الميت المتخللة لحومه بالدم

لحم الخنزير : اذا كان سليماً من الأمراض لا ضرر منه على ما نعلم الآن ، ولكن كثيراً ما يصاب بأمراض تضر الإنسان اذا أكله ، فضرره أكثر من نفعه

فمثلاً نحو خمسة فى المائة من الخنازير فى بعض جهات أمريكا مصاب بمرض (تركيتا) وهو نوع من الديدان خطر ، لأنه اذا أصيب به الإنسان يحدث به تسمماً عمومياً وإسهالاً

مثل (الكولرا) وقد يؤدي الى الوفاة . وأهم من ذلك أن لحم الخنزير المصاب لا يمكن تطهيره من هذا المرض بسهولة، فعملية السلق البسيطة أو الشى لا تكفى ، ويجب غلى اللحوم مدة لا تقل عن نصف ساعة على الأقل لتطهيرها . وإذا كانت الإصابة شديدة كانت اللحوم غير صالحة للتغذية حتى بعد تطهيرها ، لأن الحيوان يكون فى حالة تسمم عمومى قبل الوفاة

وهنا كانت حكمة الدين الاسلامى فى اجتناب الضرر الذى لا يمكن الوقاية منه الا بطرق ليست سهلة التناول ، وأحسن الوقاية العملية هى الامتناع عن أكله

ولهذا لم تشاهد من هذا المرض حالة بين المسلمين ، مع أنه ليس نادراً فى أوروبا وأمريكا .

ثم إن الخنزير سبب عدوى ديدان أخرى أقل ضرراً مثل (الاسكاريس) وأنواع من (التينيا) .

إسرار الصيام الطبية

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » الآية ١٨٣

من الناس من يتوهم أن في صيام رمضان ، وهو من أركان الإسلام ، مضرة تلحق بالصائم ، لما يصيب الجهاز الهضمي خاصة وغيره عامة ، ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب . وهذا خطأ ، لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام في شيء ، ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله وقت الإفطار ، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقعات لأنه لا ضرر من الجوع في حد ذاته .

وبما أن الصيام يستعمل طبيا في حالات كثيرة ، ووقاية من حالات أكثر ، وأن كثيرا من الأوامر الدينية لم تظهر حكمها ، وستظهر مع تقدم العلوم — رأيت من الواجب عليّ أن أكتب عما ظهر طبيا للآن من فوائد هذه الأوامر ،

وإيضاح آيات قرآنية لأيتن معناها الذي لا يظهر إلا لمن
يبحث عنها في نور الطب الحديث ، وسأبدأ بالصيام .

فوائد الصيام :

للصيام فوائد في ثلاث جهات : (أولها) وأهمها الجبهة
الروحية ، وهذه أتركها لعلماء الدين والمتصوفة منهم .
و (ثانيها) الجبهة الأخلاقية ، وهذه أتركها لعلماء الأخلاق ،
ومن السهل البرهنة على أن الصيام يعود الإنسان النظام
والقناعة ، وطاعة الرؤساء ، والصبر وكبح شهوات النفس ،
وحب الخير والصدقة ، وغير ذلك من الفضائل . و (ثالثها)
وأقلها أهمية : الجبهة المادية أو الصحية ، وهي محل بحثنا :

لقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة ، وهو العلاج
الوحيد في أحوال أخرى ، وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج
الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة .

فللعلاج يستعمل في :

١ — اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في
المواد الزلالية والنشوية . وهنا ينجح الصيام وخصوصاً
عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة
والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان . ويمكن أخذ الغذاء

المناسب حسب حالة التخمر. وهذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الأمعاء.

٢ — زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجع من كل علاج ، مع الاعتدال وقت الافطار في الطعام ، والاكتفاء بالماء في السحور .

٣ — زيادة الضغط الذاتى ، وهو آخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة . خصوصا اذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعى لمثله .

٤ — البول السكرى ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون فى مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة فى الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجا نافعا ، اذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ، ويهبط السكر فى الدم بعد الأكل بخمس ساعات الى أقل من الحد الطبيعى فى حالات البول السكرى الخفيف ، وبعد عشر ساعات الى أقل من الحد الطبيعى بكثير ، ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج فى هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصا اذا كان

الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي . ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ — التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ — أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ — التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصا اذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالبا بعد سن الأربعين . وقد شوهدت حالات تتمشى في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالسكرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج الى ارشاد طبيب في كل مرض على حدته ، والصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . وهذا صحيح ، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصا الأمراض التي مر ذكرها تحت أرقام ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٧ .

وهذه الأمراض كلها تبدىء في الانسان تدريجاً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد الى الحد

الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها. ولكن من المؤكد طبيًا أن الوقاية من كل هذه الأمراض هي في الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جدا قبل ظهور أعراض المرض. بوضوح . وقد ظهر باحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى ، وزيادة ضغط الدم الذاتى ، والتهاب المفاصل المزمن ، وغير ذلك . ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها . وهذا هو السر فى أن شركات التأمين لا تقبل تأميننا على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلها زاد الوزن. والصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض .

وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ، فقد انتشرت فى أوربا أكثر من الأول . وفى مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا ، وقليلًا جدا فى الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر فى أن الصيام فى الاسلام أشد منه فى الأديان السابقة ، لأن الاسلام ، وهو آخر الشرائع السماوية ، جاء فى زمن نحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلها زاد الترف .

الخمر واضرارها

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » الآية ٣١٨

الخمر أساسها مادة الكحول (الكئول) بكميات مختلفة ، وهذه المادة توجد بنسبة خفيفة في جسم الانسان في عملية هضم المواد السكرية (الجلاوكوز) مثل الموجود في العسل ، ولها فوائد لها طبييا ، ولكن يظهر أن هذه الفوائد مقصورة على هذا القدر البسيط جداً ، فان زاد عن ذلك أحدث ضررا ، خصوصا إذا كان التعاطي لمدة طويلة فانه يحدث التهابا مزمنيا في الأعصاب وفي الكلى ، وتصلبا في الشرايين ، وتحجرا في الكبد ، وضعفا في القلب .

ورب سائل يقول : لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟
والجواب أن الكحول (الكئول) يختلف عن أغلب المواد

فى أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفا فى قوة الإرادة والحكم ، و تزداد به الانفعالات النفسانية ، وهذا هو الخطر ، لأن الشخص يصبح شخصا آخر ، وإرادته تصبح غير إرادته الطبيعية . ومع علمه بضرر الزيادة فى حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه وهو تحت تأثير البسيط منه ، وقد يحدث الشئ البسيط منه حركة انتعاش ، ولكن ضعف الإرادة يجعل الشخص عبدا لعادة شرب الخمر . وقد وصفها كاتب من أكبر الكتاب الانجليز فى كتابه ، وكان يتعاطى الخمر ، فقال : « إني لا أحس أنى فى شعورى وإدراكى إلا إذا كنت متأثرا بالخمر ، ولكنى فى هذا الوقت وأنا سكران لا أعرف نفسى الأولى » فكأنه فى الحقيقة أضاع نفسه ، لأن عادة الخمر كانت شديدة عنده ، حتى إنه فى الأوقات التى لا يشرب فيها يشعر بكآبة وبؤس ولا يحس نفسه سعيدا ، وكأن شيئا مهماً ينقصه حتى إذا شرب شعر بالسعادة . ولكنه فى هذه الحالة ليس طبيعيا بل هو سكران . وقد مات فى شبابه بالسل مع أنه لو عاش لم يبعد أن يكون أكبر شاعر .

وهنا يلاحظ أن الخمر ، حتى قليلها ، لا يزيد قوة التفكير العميق بل يضعفها . وأما الملكات الأخرى مثل الموسيقى

والشعر فربما ظهرت بوضوح من قليل من الخمر . وهذا معنى قوله تعالى : « وإثمهما أكبر من نفعهما » .

أما تأثير الخمر من الوجهة الأخلاقية والاقتصادية فليس محل بحثنا .

إفرازات الجسم

« ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » الآية ٢٢٢

إفرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم مثل الهضم أو التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته الخ . وهذا النوع يسمى (Secretion) وهو ضروري للحياة وليس فيه ضرر .

ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب إفرازه من الجسم إلى الخارج ، وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت في الجسم أضرت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والمحيض ، وهذا النوع يسمى (èxcretion) .

فهذه الآية الكريمة علمت الانسان قبل أن يعرف شيئاً عن أنواع الإفرازات أن المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم . وأما الجزء الثاني من الآية الكريمة « فاعتزلوا النساء في المحيض ، فسيبه أن الأعضاء التناسلية تكون في حالة احتقان ،

والأعصاب تكون في حالة اضطراب ، بسبب افرازات الغدد الداخلية ، فالاختلاط الجنسي يضرها ، وربما منع نزول الحيض كما يحصل كثيرا من الاضطراب العصبي ، وقد يكون سببا في التهاب الأعضاء التناسلية .

وهذا هو السبب في أن الطبيب الاخصائي لا يكشف على مرضاه من النساء وقت الحيض .

ميعاد ظهور الحمل :

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » الآية ٢٢٨

معنى الآية صريح ، وهو أنه في مدة ثلاثة أشهر تكون علامات الحمل قد ظهرت : من عدم وجود الطمث ، ومن الاضطرابات المعدية ، ومن كبر في الجزء الأسفل من البطن . وميعاد ثلاثة أشهر هو ميعاد موضوع بحكمة فائقة ، لأنه قبل ذلك بشهر يصعب جدا التثبت من الحمل حتى بواسطة الأطباء الاخصائيين بل الكيمائيين ، وبعد هذا التاريخ تكون أعراض الحمل ظاهرة للشخص العادي . نعم قد توجد حالات يصعب الجزم فيها بالحمل أو عدمه حتى بعد مضي أربعة أشهر أو خمسة أو أكثر من ذلك خصوصا عند العوام ، ولكن هذه

الأحوال نادرة ، حتى إنها لا يجوز أن تكون محل تشريع خاص . وقد رأيت حالات في الشهر التاسع اشتبته فيها الاختصاصيون ولم تتبين بسهولة بالأشعة ، فهذه النواذر لا تدخل تحت الأحكام العامة .

لبن الام ومدة الرضاعة :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » الآية ٢٣٣

بما لا شك فيه طيباً أن لبن الأم أصبح غذاء من كل أنواع اللبن الصناعي ومن اللبن العادي مهما عدل حتى يقرب من لبن الأم . وفائدة الرضاعة للأم مهمة ، لأن اللبن بالنسبة للأم إفراز لمواد بعضها يتزايد مدة الحمل لهذا الغرض . والرضاعة نفسها مفيدة للأعضاء التناسلية ، وتقلل من الاستعداد للحمل مدة الرضاعة عند البعض ، وهذا يمنع الحمل المبكر الذي ينهك القوى .

وأما مدة الرضاعة فهي موضوع فيه آراء كثيرة . ويجب أن نلاحظ صحة المولود ، وصحة الوالدة ، والظروف المحيطة بهما . وبما لا شك فيه أن مدة سنتين هي أقصى مدة للرضاعة ،

أى بعد ذلك يجب أن يغذى الطفل بغذاء آخر زيادة
عن اللبن .

وقد تغيرت النظريات الطبية فى هذه المدة ، فقد كان
الاطباء ينصحون بالرضاعة مدة تسعة أشهر فقط ، وأحيانا
سنتين ، ولكن آخر تقرير فى سنة ١٩٣٣ عن فائدة الرضاعة
الطبيعية للجسم والاسنان يقول : إن المدة يجب أن تكون
فوق السنة ، ويستحسن أن تكون سنتين كاملتين .

النوم وضرورته للحياة

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم... الخ »

الآية ٢٥٥

هذا أبلغ وصف في الاختلاف بين الذات الإلهية وبين الإنسان ، فبعد أن وصف الإله بأنه حي ، وصفه بأن صفة الحياة فيه تختلف اختلافا كلياً عن حياة الحيوانات ، لأن كل شيء يحتاج إلى النوم والإله لا ينام أبداً . ولم يتقدم الطب في معرفة كنه النوم وأسبابه كلها ، ولكن آخر الأبحاث يضع النوم صفة أساسية للنسجة التي فيها الحياة ، فالتغيرات التي تحدث في النسجة وقت الحركة هي سبب الاستراحة والنوم . وبالنوم تستعيد النسجة سيرتها الأولى كما كانت ، وهكذا . فالنوم ضروري للحياة ، كما أن الحياة والحركة ضروريان للنوم . وبالاختصار إن النوم أشبه شيء بالموت ، إلا أنه موت وقتي ، فكأن الله تعالى يقول : إنه حي باق لا يموت ، والا فلو جاز عليه النوم لجاز عليه الموت ، لأنه لا حياة بدون نوم .

وإذا علمنا أن ما كتب عن النوم وعن أسبابه في الألفين من السنين الأخيرة يملأ مجلدات كثيرة حتى إن بعض الفلاسفة والأطباء في أوقات مختلفة كتبوا عن إرشادات لمنع النوم لأنه مضيعة للوقت ولا فائدة منه — ظهرت لنا حكمة الله ، وظهر لنا أن القرآن لا يأتيه الباطل أبداً ، لأنه وضع النوم شرطاً أساسياً لكل حي . وقد اتجهت الأفكار أخيراً ، وجميع المشاهدات العلمية تؤكد ، إلى أن النوم ناشئ من تغيرات كيميائية تحدث من الحركة في الأنسجة ، فإذا استمرت هذه التغيرات ومنع النوم بالقوة أدت إلى الموت . أما إذا تركت وشأنها فإنها تؤدي إلى النوم الذي يعيد التغيرات الكيميائية إلى ما كانت عليه قبل الحركة . وهكذا تستمر الحالة بين الحياة نهاراً والموت الوقى ليلاً .

« أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ، فأما ته الله ما ته عام ثم بعثه قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ، ولنجعل لك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم فكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير .

وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم ، الآية ٢٥٩ .

من غرائب النوم أن الانسان إذا نام وصحا من نومه لا يمكنه أن يعرف مقدار النوم أكان مدة قصيرة أم آجالا طويلة ، وعليه أن يعتمد على ما يقوله الناس له . وهذا معنى قوله تعالى : « فلما تبين له » لأنه بعد أن نام مائة عام لم يعرف الزمن الذى مر عليه إلا بالفحص وبسؤال الناس الذين حوله . ونوم الانسان مائة عام معجزة ككل المعجزات التى من صنع الله ، وهى كخلق كل المخلوقات . وسأشرح ذلك فى تفسير آيات أخرى . والله لطيف بعباده يختار من طرق الشرح لعبيده ما يتناسب مع عقولهم . وهذا هو أيضا معنى قسمة الطير التى أمر بها إبراهيم عليه السلام ، لأن إحياء الطير بعد موته لا يقل فى الإعجاز عن خلق آدم أو عن إحياء جميع الموتى . ولكن مخ الانسان لا يستطيع صدمات قوية ، إذ عند وقوعها إما أن ينتحر أو يذهب لبه . ولهذا كانت المعجزات فى شكل سهل التناول ، مع أن أبسطها هو من سميات القدرة الالهية ، ولا يتسنى للعالم كله أن يأتى به .

افضار الربا

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ »
الآية ٢٧٨

هذه الآية التي تحرم الربا يترك تفسيرها لعلماء التشريع والاقتصاد ، ولكنني سأتكلم عن نقطة طبية واحدة ، وهي تأثير الانفعالات العصبية التي تحدث عند عدم تمكن المدين من الدفع . وكما شاهدنا حالات أدت إلى ظهور البول السكري ، وزيادة ضغط الدم والشلل ، وأرق قد يؤدي إلى الجنون ، لأن الاضطراب العصبي في هذه الظروف يزيد مادة الأدرنالين في الجسم ، وهذه تؤثر في الضغط الدموي وإفرازات البنكرياس . هذا إلى أن هذه الانفعالات لا تتفق مع النفس المطمئنة التي يخاطبها الله بقوله : « يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، والتي لا تكون إلا حيث يكون الايمان الثابت .

وقد دلتنا الأزمة الأخيرة على أن الدائن لا يقل ضررا عن المدين ، فقد أفلس أناس كثيرون لأن مدينهم لم يؤدوا ديونهم ، وأكبر المصارف العقارية في العالم كانت في خطر الإفلاس وما زالت ، لأن الزارعين لم يؤدوا ما عليهم ، فاضطر مساهمو هذه المصارف إلى أن يشايطروا المدينين في الحالة التي تدهوروا إليها .

وهكذا علمتنا الأزمة أن الدائن والمدين إذا استعملا الربا ، حق عليهما قوله تعالى : « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

وأما الدائنون من الأفراد الذين يتعاملون بالربا أضعافا مضاعفة ، ويرتهنون أشياء ثابتة لا تنزل قيمتها مثل الذهب ، فضررهم من الوجهة الصحية شديد ، لأن الإثراء السريع يؤثر في الأعصاب أكثر من المصائب ، وذلك لأن الإنسان عند حدوث المصيبة يعالج صدمتها بالأمل في زوالها أو التعويض عنها ، وهذه حكمة إلهية لا تقاوم الصدمات . وأما الانفعالات الناشئة من العلو دفعة واحدة فالإنسان غير قادر عادة على اتقانها ، لأنه لا يتصور زوالها ، إذ لو تصور ذلك

لذهبت سعادته وذهب سروره بها . وكثير من الأمراض
العصية غير العضوية ينشأ من مثل هذه الحالات .

أما الكسب الحلال مثل التجارة والزراعة ، فإنه يأتي
تدرجاً . ومهما كان كثيراً في النهاية فإن صاحبه يرقبه من يوم
إلى يوم ، ويتوقع الكسب يوماً والخسارة يوماً آخر . وبهذه
الانفعالات الوقائية المتكررة يقوى على احتمال الصدمات
النهائية من الكسب والخسارة

افراج الهى من الميت

وافراج الميت من الهى

« توجل الليل فى النهار وتوجل النهار فى الليل وتخرج الهى من الميت وتخرج الميت من الهى وترزق من تشاء بغير حساب » آل عمران الآية ٢٧ .

قيل فى تفسير ذلك : إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، والسكن النطفة هى حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة ، فهو خلق حى من حى ، فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير ، والله أعلم .

فاذا قيل : إن معنى الآية خلق آدم من طين أى خلق حى من ميت ، فهذا صحيح ، والسكنه ليس المقصود من الآية ، والله أعلم ، لأنها تشير إلى أن الخلق شىء عادى يحصل يومياً بدليل ورودها بعد « توجل الليل فى النهار وتوجل النهار فى الليل » بالتعاقب ، وهذا شىء اعتيادى . فالله يضرب لنا مثلاً يشاهده يومياً ودائماً .

والتفسير الحقيقي هو « إخراج الحى من الميت » كما يحصل يومياً من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلاً يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره ، والغذاء شئ ميت ، ولا شك فى أن القدرة على تحويل الشئ الميت الذى يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه ، هو أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت . وقد كتب علماء الحيوان فقالوا : إن « النعجة » مثلاً تتغذى بالنبات ، وتحوله إلى لحمها ، وهذه أهم علامة على أنها حية ، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله إلى جسمه الحى .

وأما إخراج الميت من الحى ، فهو الافرازات مثل اللبن (وإن شئت فقلحوم الحيوانات أيضاً والنباتات) فإن اللبن سائل ليس فيه شئ حى ، بخلاف النطفة فإن فيها حيوانات حية ، وهذه تخرج من الحيوان الحى ، وهكذا ينمو الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، والله أعلم بمراده .

الفرق بين المعجزات

والإفتراعات العلمية

« ورسولا إلى بني إسرائيل أنى قد جئكم بآية من ربكم :
أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً
بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن
الله » الآية ٤٩

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال
له كن فيكون » الآية ٥٩

« بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم
ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » الآية ١٢٥

لقد وضعت هذه الآيات بعضها مع بعض لأنها من نوع
واحد فى إظهار قدرة الله بالنسبة للإنسان . وقد اعترض على
عمل الطين بشكل الطير ، لأنه لا لزوم لذلك ما دام الله قادراً
على إحيائه الخ . والحقيقة أن فى ذلك حكمة عالية ، لأن
الإنسان خلق محدود الإدراك والحواس ، ولا يفهم ولا يرى
ولا يسمع إلا ما كان فى متناول إدراكه ، فإن رأى شيئاً فوق

طاقته اجتهد في أن يرده إلى شيء يعرفه ، فإن لم يمكن بقي متحيراً ، وإن تكرر ذلك أدى إلى اضطراب في الأعصاب قد يكون خطراً. وهنأً لِحَظْ اطف الله في أنه لا يظهر قدرته للانسان إلا بطريق التدرج ، وهذا يلاحظ في كل المعجزات على الاطلاق ، لأن الله تعالى يخلق الطير من الطين ومن غير الطين ، سواء أكان في شكل الطير أم لم يكن . وكذلك لاداعي للنفخ لأن طريقة الارادة الالهية هي « كن فيكون » . ولكن الله يقرب فهم الارادة بهذه الطريقة ، لأن الطين إذا كان بشكل الطير يشتبه فيه الانسان بالطير الحقيقي ولا يكون هناك فرق بينهما إلا الحياة ، مع أن ذلك كل الفرق ، وبعدها ينفخ فيه . وعملية النفخ تجعله ينتظر تغييرا كما يحدث في أشياء كثيرة مثل الكرة إذا نفخ فيها ، وغير ذلك ، فعند وجود الروح في هذا الهيكل الطيني تكون الصدمة قد انكسرت حدتها بانتظار حدوث شيء مهم ، مع أن كل هذه المقدمات لادخل لها مطلقا في وجود الحياة والروح .

وهذا هو بنفسه ما يحدث عند إبراء الأكمه الخ ، لأن ذلك قد يحدث من نفسه أو بواسطة طبيب في حالات عصبية مخصوصة (غير عضوية) ، ولهذا يشتبه فيها الناظر .

وللمعارضين أن يقولوا إنها ليست معجزة لأننا نراها على أيدي أشخاص كثيرين ، مع أن الفرق بين إبراء الأعشى الذى فقد بصره بفقد العين نهائيا ، وبين إبراء الأعشى المصاب بالهستيريا الخ مثلا ، يشبه الفرق بين الطين الذى فى شكل الطير والطيور الحقيقي ، ولكن الله تعالى أراد أن يفهم الانسان بذلك قدرته تدريجا ، فالانسان أولا يشك ويقول : ربما كان كل هذا من الأشياء العادية التى ليست فوق قدرة الانسان ، وربما كانت شيئا غير عادى ، ولكن الله يقول بعد ذلك : وأحيى الموتى ، لئلا يدع مجالا للشك مطلقا .

إننا نجد هذه الطريقة نفسها فى تاريخ سيدنا عيسى عليه السلام ، لأنه خلق من نطفة الأم فقط ، وفى العالم المادى لا يمكن أن يخلق الحيوان إلا من نطفى الأب والأم .

ولكن الطريقة التى ولد بها سيدنا عيسى كانت بحيث لا تكون صدمة لعقول المعاصرين ، فقد اتهم هؤلاء السيدة مريم مدة من الزمن ، لأنهم بطبيعتهم فسروا ولادته أو اعتبروها كولادة الناس عامة ، ولكنهم أخذوا يفهمون الحقيقة تدريجيا عندما اقتنعوا بصحة المعجزات الأخرى التى أتى بها المسيح . وقد وصلوا إلى هذا الفهم على الرغم من

أن عيسى خلق من أم فقط ، ولكن خلقه على هذه الصورة لا يقل عن خلق آدم من طين ، لأن نظام الكائنات يجرى على سنة واحدة لا تتخلف أبداً ، إلا حيث يريد الله ، ومتى أراد الله فلا معنى لطريقة خاصة ، ولا حاجة إلى واسطة إلا بقدر الاقلال من تأثير الصدمة على الانسان كما بينا .

وهنا يظهر جلياً معنى قوله تعالى : « بخمسة آلاف من الملائكة » الآية ، وهى التى طعن فيها أيضاً بدعوى أنه مادام الله تعالى يريد نصرتهم فذلك لا بد أن يحدث بدون حاجة إلى إرسال ملائكة ، ولكن إرسال هذه المساعدة وتعيين عددها الخ هو لتقريب طريقة النصر لفهم الانسان ، فلا يقع فى الحيرة . وأما عمل الله فهو فوق إدراكنا ، ولا يمكننا أن نفهم منه إلا « كن فيكون » .

وكذلك الحال فى عصا موسى التى استعملها مع الساحرين وشق بها البحر لتخفيف وقع الصدمة على الحاضرين ، فهذه الحال لا تختلف ، فى رأى العين ، عن عصا الساحر ، ولكن أثرها يختلف اختلافاً كلياً .

وكذا حمل امرأة سيدنا زكريا ، التى ذكرها القرآن فى سورة مريم ليهدبها لقصة سيدنا عيسى : لا تقل فى الاعجاز

عن كل المعجزات ، ولكنها ملطفة لأن الناس كثيرا ما يشاهدون العاقر تعالج وتلد ، وكذلك الشيخ الكبير ، ولكن عقمها كان لسبب حقيقي كالذي فقد رجله ، ولكن الله جلت قدرته أراد اللطف بعباده .

ولمنع التكرار سأورد هنا آيات من مريم لعلاقتها بسيدنا عيسى : قال الله تعالى : « فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين » .

وهذه المعجزة كما قلنا لطف الله فيها بمريم فأراها ملكا فى شكل بشر ، وقال لها: سأهب لك غلاما ، فأجابت بأن هذا غير ممكن لأنه لم يمسسها بشر ، ولكن رؤية الملك والظروف المحيطة برؤيته أوجدت عندها بعض الشك فى أنها ربما حملت ولكن بطريقة غير عادية ، وهذا ليهيء عقلها لاحتمال صدمة الحمل عند ما يحصل .

« والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » : هذا ليهيء أفكار الناس ويقلل من صدمة المعجزة ، وكأن الله تعالى

يقول لنا إن النفخ أخذ مكان نقطة الرجل مع أن تمثل الملك
بالبشر ليس إلا مثل تشكيل الطين بالطير ، و « النفخ » في
حكاية سيدنا عيسى ليس إلا كالنفخ في الطين ، وكل
ذلك لتقريب فهم المعجزة .

والحقيقة أن سيدنا عيسى خلق من نقطة السيدة مريم ،
والجزء الآخر الذي يمثل الرجل خلق باذن الله وقدرته ،
ولا يمكننا أن نعرف أكثر من ذلك « كن فيكون » .

وأهمية الحادث هي ليست في خلق إنسان لأن الآلاف
تولد يوميا . ولكن الأهمية هي في أن السنن التي خلقها الله
وكفل لها الاستمرار وعدم التبديل ، والتي وجد بها العالم
كله ويسمى الطبعيون الطبيعة « وإن تجد لسنة الله تبديلا ،
قد بدلت . وهذا لا يكون ولا يمكن أن يكون إلا بالقدرة
الالهية التي تضع جميع السنن . أى أن سيدنا عيسى خلق بسنة
جديدة ، فخلقه بمثابة « بدء الخلق » تماما ، وهذا هو السبب
في أن ولادته وحياته كانت صدمة شديدة للذين كانوا في
عصر ولادته من الناس ، وللذين جاءوا من بعدهم ، حتى أن
أما فتنت وقالت إنه ليس بشرا مثل آدم بل هو ابن الله ،
وأن ولادته مع ما صاحبها من الملطفات قسمت الأمم شيعة ،

ولكن هذه إرادة المولى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

ولما كانت المعجزات بما فيها من خرق للنواميس الطبيعية والافعال النفسانية تدخل فى اختصاص الطيب أكثر من غيره ، جئت أخلص هنا ما وصلت إليه من قواعد أساسية فى كل ما ورد فى القرآن منها :

١ — المعجزات كلها من صنع الله مباشرة ، ومعناها سنة جديدة ، بخلاف كل ما نراه يومياً من عظة وعظمة : كالولادة ونمو الحيوان والنبات ، فانه مع إعجازه يأتى مطابقاً لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير .

وأظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس ، فان ذلك مع عظمتها لا يحدث صدمة لتعودنا إياه ، ولكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للإنسان ، مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما .

٢ — لا تحصل المعجزات إلا على أيدي الأنبياء ، وذلك لأن صدمتها إن كانت شديدة على الحاضرين فهي أشد على من يكون واسطة فيها ، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم .

٣ — لمنع الصدمة الشديدة وقت حدوثها يهيئ الله الظروف لتحملها ، ويهيئ النى نفسه لقبولها ، ويهيئ الحاضرين لمشاهدتها ، فأمر الله لسيدنا موسى بادخال يده فى جيبه وإخراجها فتكون بيضاء ، ليس لإلهيته للمعجزات الأخرى . وكذلك عدم استطاعة سيدنا زكريا الكلام ثلاثة أيام قبل حدوث الحمل عند امرأته .

وقد سبق الكلام على تهيئة الحاضرين والمستمعين ، وهذا هو السبب فى أن المعجزات تظهر دائماً ملطفة بمقادير مختلفة ، وهذا سر ذكر قصة سيدنا زكريا قبل قصة سيدنا عيسى فى سورة مريم .

٤ — ليس للعقل البشرى أن يحكم على أى المعجزات أعظم من الأخرى ، ولا أن يتكلم عن الطريقة التى تحصل بها المعجزات ، لأنه يتكلم عن شىء كله مجهول له ما دامت المعجزة من صنع الله ، وما دام الانسان وعقله من صنع الله كذلك على مقتضى سننه ، ولا يستطيع المخلوق أن يفهم السنة التى خلق عليها ، وإلا لاستطاع الانسان أن يخلق نفسه بنفسه ، وأن يتحكم فى خلق غيره .

وهنا يلاحظ أن كل المعجزات لا يمكن أن يصل إلى

صنعهما الانسان مهما ارتقى ، وأغلبها ينتهى إلى شيء واحد وهو خلق الحياة والروح مهما ظهرت صغيرة لأول نظرة ، فمثلا إبراء عيسى للأعمى يظهر لأول وهلة أنه أقل من إحياء الموتى . والحقيقة أن المقصود بالأعمى هنا هو الأعمى الذى فقد شيئاً عضوياً حياً لا يمكن استعاضته ، ومن أمكنه استعاضة شيء مهما صغر حجمه أمكنه أن يستعويض الكل . وأما إبراء الأعمى الذى يشاهد يومياً فهذا يحدث فى الأحوال العصبية غير العضوية ، وبواسطة أطباء العيون ، وهو يحدث بإزالة أشياء تكون سبب العمى ، ولكن لا يمكن الأطباء أن يحدثوا مثلاً إبراء الأعمى باعادة عصب للعين من جديد الخ . وكذلك صنع أرجل جديدة ، فالجراح يصنع رجلاً صناعية ، وبواسطة العضلات الباقية يستطيع الانسان أن يمشى عليها ، ولكن هذا الجراح لا يمكنه أن يصنع رجلاً من لحم ودم .

وصفوة القول أنه لا يمكنه أن يصنع جزءاً حياً مهما صغر حجمه ، لأن الجسم بمجموع ملايين من الخلايا ، وصنع واحدة كصنع الكل ، وهذا معنى قوله تعالى : « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » ولذلك ستبقى المعجزات دائماً فوق قدرة الانسان . ويظهر لنا عظمها أو عدم عظمها بالنسبة

لحقولنا فقط ، ولكنها كلها من نوع واحد . وما كان صنعه فوق إدراكنا لا يمكننا الحكم عليه .

وقد يقول البعض: إن العلوم تتقدم ، وإنه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجودا في مدة الأنبياء لعدت معجزات ، وهذا القول دليل على أن الروح الحقيقي للمعجزات لم يفهم ، لأن كل الاختراعات العلمية تبنى على السنن الطبيعية ، وكلها مبنية على قواعد علمية لا تتغير ، فإذا ظهر لها استثناء فإن سببه هو قاعدة علمية أخرى يبحث العالم عنها حتى يعدها ، فإن وجدها لا تنطبق على كل الاستثناءات وجد الخوارج عن هذه الاستثناءات محكومة بسنة أخرى ، وهكذا إلى ما لا نهاية . فالسنن الإلهية أو القواعد العلمية (أو قواعد الطبيعة — كما يسميها الطبيعيون) لا حد لها ، ولا تتغير أبداً . وما لا ينطبق على القاعدة الأصلية ينطبق حتما على قاعدة أخرى وعلى قواعد لا تتغير أيضا ، وكل ما يظهر مدهشا في نتيجته من المخترعات مثل الكهرباء والتليفون والراديو وما سيظهر ، هو من الاستعانة بهذه القواعد ، فالذي يتكلم في أوروبا ويسمعه آخر في مصر بواسطة الراديو ، استطاع ذلك لأن الهواء بطبيعته يحمل الصوت بصفة أمواج إلى العالم كله ،

فاستعان العلماء بهذه السنة الطبيعية وسخروها لأغراضهم ،
ولذلك مهما عظمت النتائج في المخترعات فان طريق الوصول
اليها سنة ثابتة ، ومثلها مثل من يخفر الأرض ويستعين بمساء
المطر ويحوله نهرا يجرى ، فانه لم يخلق نهرا ولكنه استعان
بالقوى الطبيعية ، بعكس المعجزات فانها من طراز آخر ،
وهي مهما صغرت نتائجها خلق سنة جديدة . وقد أوضحنا
ذلك فيما تقدم

ولزيادة الايضاح أضرب مثلا قصة سيدنا ابراهيم وعدم
احتراقه بالنار ، فان العلم بتقديمه يستطيع أن يغطي الانسان
بشيء غير قابل للاحتراق ويضعه في النار فلا يحترق ، وهذا
يشبه المعجزة ، ولكنه اختراع استعان صاحبه فيه بالنواميس
الطبيعية ، أما المعجزة فهي أن تضع الانسان كما هو جسما
ولحما في النار ، فيكون عدم احتراقه هنا ، أى المعجزة ، خرقا
للسنة الطبيعية التى تقضى باحتراق الجسم إذا وضع في النار .
وأما تغطية الجسم لمنع اتصال النار به فانه يظهر أن المخترع
أمكنه منع النار من إحراقه ، ولكنه في الحقيقة منع النار من
إحراق الجسم الخارجى الذى لا يقبل الاحتراق بطبيعته ،
لأن جسم الانسان المغطى بمادة لا تحترق لم يتعرض للنار .

والفرق بين الاثنين ظاهر . والفرق بين المخترع وصانع المعجزة مثل الفرق بين الحاوى والمخترع .

ويمكن تطبيق هذه النظرية فى معجزة « ذى النون » لأن الانسان يمكنه أن يعيش أياما فى الغواصات تحت البحر ، ولكنه يفعل ذلك بالاستعانة بالنواميس الطبيعية ، وأما المعجزة فتكون بخرق القوانين ، وهكذا مكث ذو النون فى بطن الحوت بدون هواء صناعى ، معرضا لأن يهضم ويتحول جسمه مثل باقى المواد .

والطبيب الذى يعيد للقلب ضرباته ليس كمن يحيى الموتى ، لأنه استعان بالسنن الطبيعية ، وأما إحياء الموتى فهو خرق لهذه السنن . ويتساءل كثيرون : هل المعجزات ضرورية ؟ والجواب أنها ضرورية لايمان الانسان بقدرة الله ، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين ، لأن سنن الله لا تتغير أبدا ، وهذا ما يسمى « بالطبيعة » ولا فرق بين الاثنين ، وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وما خفى الآن شىء مدهش ، حتى إن الانسان قد ينسى واضع هذه القوانين ويقول : ما الحاجة بى لأن أقول إن هناك صانعا أزليا ما دامت هذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين ؟ وهنا كانت حكمة الله

فى أن ىخرق هذه السنن لىظهر للناس أن الصانع الأول موجود . ومثل ذلك مثل آلة الميزان وزن الانسان إذا وقف عليها ووضع قطعة معدنية فى ثقب فيها فتخرج ورقة عليها رقم وزنه ، فإذا فرضنا أنها محكمة الصنع لا تتغير أبداً آلاف السنين ، فإن الإنسان يشك فى صانعها الأول ، ولكنه إن رأى أنها قد تخرج ورقة الوزن بدون أن يقف عليها أحد ، وبدون وضع القطعة المعدنية فيها ، يقول : من يفعل ذلك ربما أمكنه صنعها ، وإذا رأى يوماً ما أن قطعة معدن صغيرة أصبحت أمام عينيه آلة صغيرة وزن الأشخاص ، أيقن أن للأولى صانعاً ، وهذا هو معنى صنع الطير من الطين ، لأن هذا تمثيل لخلق سيدنا آدم الذى منه خلق العالم الإنسانى كله بالسنن (الطبيعية) الإلهية التى لا تبدل فيها .

وصفوة القول أن أساس المعجزة وعظمتها ليس فى نتائجها وغرائبها . فالدهشة من سماع الأبكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة ، ولكن أهمية المعجزة فى طريقة صنعها بدون السنن الاعتيادية ، وهى لذلك لا تتكرر أبداً إلا بأذن الله . لأن الإنسان لا يعرف قاعدتها ولا يدرك طريقة صنعها . أما الاختراع فانه اكتشاف لنا موسى إلهى (طبعى) ، ولذلك هو يتكرر دائماً فى الظروف نفسها على يد كل إنسان .

فلس عيسى وآدم وبحوث أخرى

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الآية ٥٩ من آل عمران .

هذه الآية تفسر ما قلناه سابقا في حمل السيدة مريم ، وهو أن الملك والنفخ الخ ، إنما هي ملطفات لوقع المعجزة فقط ، وأما الحقيقة فإنه ما دامت السنن الالهية قد بدلت فلا ضرورة لطريقة مخصوصة ، فان عقولنا لا تفهم إلا أن الله تعالى يقول « كن فيكون » . وهنا وجه الشبه بين ولادة عيسى وخلق آدم ، وكلاهما من صنع الله مباشرة ، وعلى غير طريقة السنن الاعتيادية التي يبحث عنها الانسان ويجدها دائما لا تتبدل إذا تساوت ظروف التجربة ويمكن أن يكررها الانسان بنفسه مرارا ، وأما خلق عيسى وآدم فلا يمكن أن نفهم طريقته .

تفريب المعجزة لفهم الانسان :

« إذ تقول المؤمنون ألن يكفيناكم أن يمدكم ربكم بثلاثة

آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم
من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة
مسومين » ١٢٥ من سورة آل عمران .

قد سبق تفسير هذه الآيات ، والله تعالى يخاطب الانسان
بالطريقة التي يفهمها . والحقيقة أن الله مادام قدر لهم النصر فلا
ضرورة لأى عدد مخصوص يأتى لمساعدتهم . وكأن الله تعالى
يخاطبهم حسب عقولهم ويقول لهم : إن صبرتم فإن النصر
يكون أكمل ، وإن خمسة آلاف تقاتل معكم بدل ثلاثة
آلاف .

ضعف الانسان وجهله :

« قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى
مضاجعهم » ١٤٥ من سورة آل عمران

هذه الآية تذكر الانسان بضعفه . وأن موته ليس بيده ،
وأنه لا يتحكم فى مستقبله كما أنه لا يتحكم فى ولادته . ورب
قائل يقول : مادام الانسان فى بيته ولا يخرج منه فكيف يبرز
منه ليقتل ؟ والحقيقة هى أن عقل الانسان الذى يحكم به على
الأشياء فى حالاته الاعتيادية ، ويستعمله ليفر من الموت ،

يجعله عرضة لتأثيرات عنيفة من الانفعالات العصبية التي
تصيره في حالة جنون وفتى قد يؤدي به إلى الموت الذي كان
يفر منه .

وأضرب لذلك مثلاً شهادته بنفسى ، وهو أن شيخاً يبلغ
من العمر فوق الستين يحب حياته ويخشى الموت ، ولا يأتمن
أحدًا على أن يعطيه الدواء حتى أقرب الناس إليه ، وكان يأخذ
بنفسه حبة الدواء عند الحاجة إلى النوم حتى يتأكد أنه لم يتعاط
أكثر مما يجب ، وقد حصل له في ذات يوم انفعالات عصبية
مع أرق اضطرمعها إلى أن يزيد كمية الحبوب المنومة ، ولكنه
بدل أن يأخذ اثنتين أخذ أكثر من ذلك ، بل تناول كل
ما كان في الأنبوبة ، وكان سبب وفاته نفسه التي كان يفر بها
من الموت .

وهذا معنى قوله تعالى « لبرز الذين كتب عليهم القتل » .
أى أن الشخص الذى لا يخرج من منزله خوفاً من الموت
قتلاً لا بد أن يموت قتيلاً ، لو كتب عليه القتل : « قل إن
الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم » .

وفى هذا إظهار لضعف الإنسان ولجهله ، فان عدم المعرفة
الكاملة يعرضه لأن يقع فيما كان يريد أن يتحاشاه . وهذا

معنى المثل القائل : « نصف المعرفة أضر من عدم المعرفة » .
فهذا الشيخ الذى يحب حياته ويحتاط لها ، عرف بالتجارب
أن يأتمن نفسه على حياته أكثر مما يأتمن الذين حوله ، ولكنه
كان جاهلا بعلم النفس ، ولم يعرف أن عقله ليس شيئا ثابتا ،
وأنه يتقلب كثيرا بالمؤثرات ، وقد يكون أشد ضررا على نفسه
ممن حوله ، وهو لو عرف ذلك أيضا فإنه يحمل أشياء أخرى .
وهكذا يبقى الانسان طفلا أمام الحوادث ولا يصيبه إلا
ما كتب له .

هلمى النساء :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة
وخلق منها زوجها » الآية ١ من سورة النساء .

تفسير هذه الآية ظاهر بعد ما قيل فى السنن الطبيعية
والمعجزات . فأول المخلوقات سيدنا آدم ، ومنه زوجته . وقد
خلق سيدنا آدم بطريقة لا نعرفها . وأما باقى المخلوقات فإنها
خلقت من هذه النفس الواحدة بطريقة التناسل ، وهى من
السنن الطبيعية التى لا تتبدل إلا حيث يريد الخالق كما قلنا فى
المعجزات . وهذا معنى الآية الكريمة « وهو الذى يبدأ
الخلق » .

فهناك فرق بين خلق سيدنا آدم وبين خلق أى إنسان :
فالأول خلق كاملاً ، خلقه الله الذى يستحيل عليه النقص ،
وأما باقى المخلوقات البشرية فقد خلقت بالسنن الإلهية ، وهذه
السنن تتأثر بسنن إلهية أخرى ، ولذلك كان هناك تفاوت كبير
فى كمالها بالنسبة للجسم والعقل .

وسأضرب لذلك مثلاً : شخص يصاب بمرض الزهري
فيكون أولاده مرضى بدرجات مختلفة ، وقد يكون فى
جسمهم جراثيم الزهري ، وقد يكون منهم الأعمى والأصم
والأبكم الخ ، أى أنهم يكونون غير كاملى الخلقة . وقد يولد
الطفل ميتاً أو يعيش مدة قصيرة . وتفسير هذا النقص فى الخلقة
هو أن خلق الإنسان كما أنه نتيجة سنن طبيعية لا تتبدل ،
كذلك حياة الجراثيم وحياة كل شئ إنما هى نتيجة سنن طبيعية
أخرى . وقد اقتضت إرادة الله أن تعيش هذه الجراثيم على
جسم الإنسان ، فهى مضرّة بالإنسان ، ومضرّة بنفسه الذى
هو جزء منه ، ولكنها لا تعيش إلا على جسم الإنسان ،
وتموت بعد مدة قصيرة إن بقيت بعيدة عنه . فالنقص الذى
يظهر فى النسل مثل النقص الذى يحدث فى الجسم نتيجة حادثة
طبيعية ، لأن الاثنين نتيجة سنن طبيعية .

وإذا سأل سائل : ألم يكن الله قادراً على أن يخلق كل فرد كاملاً ؟ فالجواب : نعم ، إلا أن في ذلك فائدة للنوع الانساني ، وسنشرحها في مقال آخر . والنقص الظاهر الفردي هو من كمال السنن الالهية وكمال النوع الانساني . فالشخص الذي يسقط من مكان عال ويفقد رجلاه مثلاً لا يقال إن خلقته ناقصة من أول تكوينه ، لأن ما طرأ عليه هو شيء نفهمه من القواعد الطبيعية . وكذلك الشخص الذي يعرض نفسه للجراثيم ويعرض وتنتقل الجراثيم إلى نسله ، لا يكون نسله ناقصاً من أول تكوينه ، ولكن المرض طرأ عليه حسب الناموس الطبيعي (الالهى) . وهذه الأمراض التي يتعرض لها الانسان لا تخلو من فوائد جمّة سأتكلم عنها في تفسير آيات أخرى .

الحكمة في سبيل هدم الكفار :

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، إن الله كان عزيزاً حكيماً » الآية ٥٦ من سورة النساء .

هذه الآية تقول : إن النار كلما أكلت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها . والسبب في ذلك أن أعصاب الألم هي في الطبقة

الجلدية ، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية
فالأحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط
الذى لا يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً ، بخلاف الحرق
الشديد الذى يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته
وخطره لا يحدث ألماً كثيراً . فالله تعالى يقول لنا : إن النار
كلما أكلت الجلد الذى فيه الأعصاب نجده كى يستمر الألم
بلا انقطاع ، ويدوقوا العذاب الأليم . وهنا تظهر حكمة الله
قبل أن يعرفها الإنسان ، وكان الله عزيزاً حكيماً .

حكمة القرآن وعظمته:

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا
فيه اختلافاً كثيراً » ٨٢ من سورة النساء .

هذه الآية الكريمة هى التى دعتنى إلى تفسير بعض الآيات
لأنى وجدتها يفسر بعضها بعضاً بلا اختلاف ، وإذا ظهر مثل
هذا أو كان ما لا يتفق مع الآراء العلمية فيما مضى فإنه كلما
تقدمت العلوم ظهرت حكمة القرآن ، وظهر أن كل شئ
لا يتفق مع القرآن باطل ، والأمثلة كثيرة فيما قلنا وفيما سيأتى .

حكمة الوضوء وقوائمه الطيبة

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ »
الآية ٦ من سورة المائدة

حركة الوضوء يقصد منها : حركة استعداد للصلاة ،
لأن الصلاة معناها أن يتصور الشخص أنه أمام الخالق ،
وأن يكون خاشعاً ، وأنه يقوم بإظهار عبوديته ، فلذلك يتهيأ
ذهنه لذلك ويتخلص من شواغل الحياة الكثيرة ، فرض عليه
الوضوء قبل القيام بالعبادة . وفي اعتقادي أنه يحسن بمن
يريد أن يحصر عقله كله في عبادة ربه ، دون أن تشغله الحياة
التي نراها في هذا العصر ، يحسن أن يستريح زمناً قبل الصلاة
ليستجمع قواه العقلية ، ويهيئ نفسه للخشوع ، ويترك
شواغل الدنيا .

وإذا كان الإنسان مشغولاً بتفكير عميق فإنه لا يرى
ما يقع أمامه ، ولا يسمع بما يدق حوله ، وهو والحالة هذه
يحتاج إلى تنبيه ليرى ويسمع ، وهذه نظرية فسيولوجية لكل

الحواس التي لا تؤدي وظيفتها إلا إذا كان المخ غير مشغول بشيء آخر ، وحتى يكون على استعداد لاستعمال الحاسة الخاصة . وكذلك الشأن في حركة التفكير ، فالذي يفكر في شيء مهم لا يمكنه أن يفكر في شيء آخر إلا إذا تنبه اليه بانفعالات عصبية ، وهنا يترك التفكير الأول فجأة وعلى عجل ، وأما إذا أريد تنبيهه ليفكر في شيء آخر تفكيراً هادئاً فإنه يحتاج إلى وقت ما ، فإن الذي يفكر في التجارة والزراعة ثم يقال له قم للعبادة ، يجد صعوبة في تأديتها .

وهنا كانت حكمة الوجود ، لأنه يساعد الانسان على ترك التفكير الأول ، ويعطيه الوقت الكافي لبدأ في تفكير عميق من نوع آخر . وما لا شك فيه أن الشخص إذا كان كثير الاشتغال بأمور الدنيا يصعب عليه حتى بعد الوجود أن يترك تفكيره الأول تركاً تاماً ، ولذلك كانت الحكمة في الذهاب إلى المسجد قبل موعد الصلاة ، كما كانت الحكمة في الحث على عدم الافراط في حب الدنيا . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » ، وفي الحث كذلك على عدم الاهتمام بالفشل والنجاح « لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » . وكل ذلك حتى لا يشتغل

عقل الانسان بأمور الدنيا اشتغالا يصعب معه أو يستحيل أن يكون مطمئن البال . وأن يكون خاشعا وقت الوقوف بين يدي الله ، حتى بعد حركة التنبيه التي يحدثها الوضوء .

وقد شبه الدكتور محمد عبد الحميد الوضوء بفترة الاستراحة بين محاضرتين ، فهي تعطى الطالب الوقت لترك التفكير في المحاضرة الأولى ، وأخذ الأهبة للمحاضرة الثانية .

أما الفوائد الأخرى للوضوء فكثيرة من الوجهة الطبية .

فنظافة الفم مرات متعددة في اليوم ، من أهم أسباب الوقاية من مرض الأسنان واللثة . كذلك غسل طاقة الأنف بماء بارد من أهم الوقاية من الزكام المتكرر ، وكأنها مثل الحقن بالفاكسين ، وقد كتب أخيرا في هذا الشأن أطباء اختصاصيون في الأنف .

وفوائد غسل الوجه والأذنين والأيدي ظاهرة ، من كثرة ما يصيب الوجه والأجزاء المعرضة عادة للأمراض الجلدية ، وللالتهابات ، فإن غسلها عدة مرات كل يوم أحسن وقاية لها من ذلك . وقد اتضح أخيرا أن كثير من الميكروبات (الجراثيم) بل الأغلبية منها تصيب الانسان بطريق اختراقها

الجلد ، كما اتضح أن طفيليات الديدان تدخل الجسم بطريق اختراق الجلد أيضا ، ولا شك في أن الغسل المتكرر من الوقايات البسيطة الفعالة ، لأن الطبقة الخارجية للجلد تمنع كل الميكروبات من الوصول إلى داخل الجسم ، إلا إذا حصل فيها «تسلخ» abrasion ولو بسيطا ، فهي حينئذ تفقد وظيفتها وتتمكن الجراثيم من الدخول إلى الجسم . وأهم سبب لوجود التسلخات البسيطة هو (الهرش) وهو نتيجة عدم النظافة

وأما الجراثيم التي تدخل من الفم فلا تدخل إلا من طريق تلويث الأيدي ، فإذا كانت الأيدي مغسولة نظيفة على الدوام ، كانت أحسن وقاية

«يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»
سبق الكلام على ضرر الخمر من الوجهة الطبية

تفاوت المعجزات وتلطيف وقعها

« وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى » ١١٠ من سورة المائدة

سبق أن تكلمنا فى تفسير هذه المعجزات ، ووضحنا الفرق بينها وبين المخترعات ، ثم بينها وبين ما يمكن أن يأتیه الانسان مهما تقدم علمه . وما يلاحظ أن المعجزات مرتبة بحسب تأثيرها فى الانسان ، فإحياء الطير المصنوع من الطين أقل صدمة من ابراء الأكمه ، وأشدّها صدمة هو إحياء الموتى ، ولكن الكل كما قلنا من صنع الله مباشرة

وقوله تعالى : « تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى » : هذه الكلمة الأخيرة من الآية تفسر ما قلناه سابقا من أن صنع الطين بهيئة الطير إنما هو تلطيف لوقع المعجزة . لأن الآية السكريمة تنص على أن الله أمر سيدنا عيسى بصنع الطير من الطين لغرض خاص ، وأما اذا صنعه شخص آخر أو صنعه سيدنا عيسى

من نفسه في ظروف أخرى ، فإنه لا يفيد في إدخال الروح إلى الطين . وكذلك قوله تعالى : « يا ذئب » بعد قوله : « فتنفخ فيها فتكون طيرا » لأن المهم هو إرادة الله لا حركة النفخ . وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا ، ويفسر ما قلناه سابقا في المعجزات والمخترعات ، وهو أن المعجزات ليست لها طريقة يتعلمها الانسان ، وأنه مهما تشابهت ظروف التجربة فانها لا تكرر بل هي من صنع الله مباشرة . وأما المخترعات فهي كشف سنة طبيعية ، ويمكن الانسان أن يكررها مرارا على يديه ما دامت ظروف التجربة متشابهة ، حتى لو لم يفهم الانسان حقيقة السنن الطبيعية فإنه لا يعرف ما هي الكهرباء ولا الحرارة الخ ، لكنه يعرف ويستفيد من كثير من السنن التي تتعلق بها ما دامت لا تتبدل — ولن نجد لسنة الله تبديلا .

وقد أظهرنا في الكلام على المعجزات أنه فيما يتعلق بالروح والحياة ، يمكن الانسان أن يستفيد من السنن الطبيعية التي تختص بها ، فالطبيب يمكنه أن يعطى دواء يقوى به القلب وبذلك يستمر على الحياة ، ولكنه لا يمكنه أن يوجد الحياة في الجمد أو في جسم ميت موتا تاما . وكلما تقدمت

العلوم ارتقى الإنسان في معرفة السنن الطبيعية ، ولكنه لن يبدأ خلقا جديدا لأن هذا من اختصاص الله ، وقد سبق البرهان على ذلك منطقيا : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به » ؟

علم الغيب

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »

الآية ٥٩ من سورة الأنعام

هذه الآية لا علاقة لها بالطب مباشرة ، ولكن الطبيب أحيانا يتنبأ بموت المريض بعد زمن معين ويصدق في نبوءته . فهل هذا معناه أنه يعلم شيئا من الغيب ؟ كذلك يتنبأ الفلكي بحادث فيحدث كما أنبأ به تماما ، والحقيقة أن معرفة الغيب عند الانسان تختلف اختلافا جوهريا عن علم الغيب عند الله . والفرق بينهما كالفرق بين الاختراع والمعجزة .

وعلم الغيب على أنواع :

١ — العلم من طريق السنن الالهية ، فالانسان يعرف ما سيأتى في الغيب بطريق معرفة السنن الطبيعية ، ولذلك كان علمه ناقصا ، فاذا علم قانونا وحكم به على الأشياء وما سيحدث لها فهو كثيرا ما يخطئ ، لأن هناك سننا أخرى طبيعية لم يعرفها تؤدي إلى نتيجة مخالفة لما ينتظره ، وهكذا يستمر في درس هذه السنن ويعرف شيئا ويبقى جاهلا أشياء الى النهاية .

وأما علم الله فهو من نوع آخر ، لأنه واضح السنن كلها ولا يخفى عليه أى قانون من القوانين الطبيعية التى وضعها ، ولذلك كان علمه جل وعلا وإرادته لا ينفصلان أبدا ، فعلمه بالشىء معناه حدوث هذا الشىء لا محالة ، بخلاف علم الانسان الناقص الذى ليس له علاقة بحدوث الشىء مطلقا . والفيلسوف الذى يتنبأ بالحدوث لا علاقة له به ولا تأثير له فى إيجاد الحادث مطلقا . والطبيب الذى يتنبأ بالموت لا علاقة له بموت المريض . وقد بين الله لنا مقدار علمه بكل السنن الطبيعية كما قلنا بقوله : « ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » لأن لكل هذا سننا لم يتعلم الانسان إلا ماندر منها ، وكل ما عرفه ناقص أبدا « وفوق كل ذى علم عليم » « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وهذا النوع من العلم هو الذى حثت الأديان على الاستزادة منه ، لأنه يفيد الانسان ، ولأنه فى متناول إدراكه الذى منحه الله إياه ، ومعناه العلوم القديمة والحديثة كلها ، ومعناه كل معرفة (Knowledge) .

٢ — علم الغيب الذى لا يتناوله إدراكنا لأنه ليس

من السنن الطبيعية التي يحتاج لها الانسان في نموه من النطفة الى أن يصير شخصا كاملا ، وهذا هو المقصود من الآية الكريمة «عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول » .

والرسول يعرف الغيب بما يوحىه اليه الخالق . لأن ذلك يشبه المعجزة ، وليس له قانون يدرس ، ولذلك لا يمكن الاّ انسان معرفته بجده واجتهاده ، والرسول لا يعلمه إلا بالقدر الذي يعلمه الله إياه ، والذي يهيئه الله له ، وهذا هو معنى الآية « واصطنعتك لنفسى » مخاطبا به نبيه موسى عليه السلام ، أى أنه أعطاه من الادراك ما يمكنه من فهم ما يوحى اليه « الله أعلم حيث يجعل رسالته »

وعلم الغيب يشمل كل ما أمرنا القرآن بأن نؤمن به :
« الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون » .

فنؤمن بالآخرة وما فيها ، وببدء الخلق وإحياء الموتى ، وبالمعجزات الخ ، وكل ذلك بدون أن نجد له قانونا يرشدنا كما نجد قوانين السنن الطبيعية ، ويجب مع هذا التصديق به ، إذ التصديق به شرط أساسى للإيمان الصحيح .

والحقيقة أن هذا النوع من العلوم هو ما يقال له « Nelaphysis » أو ما فوق المادة ، أو ما وراء الطبيعة . وقد كتبت عنه مؤلفات في كل الأجيال ، وكثرت التعاريف الفلاسفية فيه ، وأخيراً تقدمت العلوم الحقيقية (علوم السنن الطبيعية) . وقد اقتنعت بعد الفحص والتدقيق في كل ما كتب عنه بأن عقل الانسان لم يخلق لفهمه ، وأن السبب في ذلك ظاهر : هو أن عقل الانسان نتيجة نمو النطفة بالسنن الطبيعية ، كما ينمو النبات من البذور تماماً ، فالله لم يهيء الانسان إلا بالقدر الذي يفهم به القوانين التي تهديه الى طريقه « الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى » وقد خلق الله للانسان من الحواس ما يكفيه فقط . والله لا يخلق شيئاً عبثاً وزائداً عن الحاجة أبداً ، « إنا كل شيء خلقناه بقدر » . وهذا هو معنى الآية « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » . فالانسان يبحث ويتعلم كل ماله علاقة بالقوانين الإلهية التي تؤثر فيه في النوع الأول من علوم الغيب ، وإذا حاول فهم ما فوق ذلك من قبل خلق النطفة: مثل بدء الخلق ، وطريقة إحياء الموتي ، وأخبار الآخرة ، فإنه يحاول فهم المجهول ، مع أنه ليس له من الحواس ما يساعده على فهمه ، فعليه أن يمتثل ويصدق ما أنزله الله ،

وإن لم يصدق فسيضيع وقته في البحث عنه عبثاً ، والله يخاطب
الإنسان مظهره له ضعفه ، وأنه لا يقدر على فهم أشياء كثيرة
بقوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن
شيئاً مذكوراً » ، وقوله : « ألم يك نطفة من منى يمنى » أى أنه
مثل بذرة النبات فى دور من أدوار حياته ، ونقطة فى إفرازات
شخص آخر ، وهذه النطفة التى لا حول لها ولا قوة اذا
تعهدتها السنن الإلهية (الطبيعية) تصير إنساناً . فهل ينسى
ضعفه المتناهى ويبدأ بالبحث عن أشياء لم يخلق لأجلها ؟

والإنسان لا يشذ عن باقى الحيوانات التى ليس فيها من
الحواس والادراك الا بالقدر الذى يمكن النطفة من النمو الى
النهاية ، وهذه قاعدة علمية عامة لا استثناء لها .

ولا يوضح الفرق بين النوعين من علوم الغيب نقول :
إن الله تعالى وصف الإنسان فى النوع الأول بأنه عالم ببعض
العلم : « وفوق كل ذى علم عليم » ، وبين له مقدار علم الله بما
معناه أنه يعلم كل صغيرة وكبيرة فى الأرض والسماء .

فاذا كان الإنسان يعرف أشياء من الغيب بمعرفة بعض
قوانين طبيعية أفلا يكون عند الله مفاتيح الغيب كلها ، وهو
الذى وضع كل السنن ؟ فالله الذى خلق آدم وخلق منه زوجه

علم مقدار ذريتهما من ذكر وأنى ، وعلم ماسيقع لهؤلاء جميعا بعلمه بما فى نطفهم قبل ظهورهم فى الحياة ، وهو يعلم كذلك كل الظروف المحيطة بهم حتى النهاية ، فهو الذى بدأ الخلق وعلم منذ البدء كل ما سيكون . وكما أن النطفة التى لا يزيد قدرها عن عشر المليمتر تنمو بالسنن حتى تصبح إنسانا ، كذلك كل مميزات الانسان عن الحيوانات الأخرى ، ومميزاته عن غيره حتى فى أصغر الأشياء : موجودة ومثلة فى هذه النطفة وكذلك نطف بنى آدم جميعا فانها ممثلة فى آدم وحواء ولكنها لا تحتاج الا الى السنن الالهية لتظهر أمام أعيننا وذلك لأن كل فرد منا يمثل فى عالم الذرة من يوم بدأ الله الخلق ولو أعطى الله الانسان علما لعرف الأولاد وهم أقل من النطفة فى أرحام أمهاتهم ، وعرف أولاد أولادهم فى هذا الجسم الذى هو أقل من النطفة ، وهكذا . فالخالق يعلم جميع بنى آدم ممثلين فى آدم وحواء . وسأضرب لذلك مثلا :

صندوق فيه ملايين من الصور الصغيرة للسينما (فلم) فهذا الصندوق المغلق يعرف كل ما فيه الصانع الذى صنعه ، ولكن الانسان العادى لا يعرف ما فيه الا اذا عرض بشرط سينمائى ، فالمتفرجون يعرفون ما يظهر منه أولا وأولا ،

ويظهر لهم كأنه شيء جديد ولما سكنه في الحقيقة قديم. وكذلك عقل الانسان : فانه يقسم الزمن الى ماض وحاضر ومستقبل ، ويدفعه لان يسمى ما يظهر له بمرور الزمن «مستقبلا وغيبا» . والحقيقة أنه غيب بالنسبة له ، ولكن الله الذي خلقه وخلق السنن الطبيعية غنى عن عرض سينمائي ، لأنه هو الصانع الأكبر الذي يعلم كل ما فيه « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها » . وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا

وأما النوع الثاني من الغيب فالانسان في ظلمة تامة بالنسبة له ، وهنا يخاطبه الخالق بقوله : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » . ومعناه أنه لم يكن نطفة فقط ولكنه كان ممثلا في نطفة آدم وحواء بشيء صغير جدا أقل من النطفة ، واذا كان الخلق كله ممثلا في نطفة آدم وزوجه فيكون كل فرد ممثلا في جزء من أقل من آلاف الملايين من النطفة ، وهذا ما يسميه الخالق سبحانه وتعالى شيئا غير مذكور «infinitesimal» ويستعمل العلماء هذه اللفظة في العلوم الحديثة لكل شيء متناه في الصغر ، أو ثاني شيء للصفر أو عدم الوجود . ورب سائل يقول : إن كل شيء يبدأ صغيراً كالمنزل

فانه يبني من أجزاء صغيرة حتى يعالو ويأخذ شكله ، وليس في ذلك غرابة ، والمنزل الكامل شيء آخر غير الأجزاء المكون منها . ولكن الانسان ليس كذلك ، فهو يتكون من النطفة لا باضافة شيء حتى جديد مطلقا ، ولكن بتحويل الأجسام الميتة (الغذاء الخ) الى شيء حتى كما قلنا في تفسير « يخرج الحى من الميت » . فجسم الانسان عند نموه ليس الا النطفة مكبرة باضافة أشياء ميتة اليها ، والنطفة تمثل الانسان بدقة مذهشة ، ومثلها مثل صورة صغيرة جدا اذا كبر حجمها بدون تغيير ، وهكذا يقول الله للانسان : « إنك فى زمن من الأزمان كنت شيئا غير مذكور تافها ، ولم يطرأ عليك الا زيادة الحجم » . وليس هناك فرق بين الصورة المصغرة والصورة المكبرة الا الحجم . وفى هذا إظهار لقدرة الله وشدة ضعف الانسان ، وأنه لا يدرك الا ما خلق لأجله .

وصفوة القول فى هذا النوع من الغيب هو أنه يشبه المعجزات ، فكما أنه لا حول لنا ولا قوة أمام المعجزات ، كذلك نجد جهلنا كاملا بالنسبة لعلوم الغيب ، فلا نعرف منها إلا ما يخبرنا الله به على لسان الأنبياء ، ومثلنا مثل من يولد أعمى ، اذ لا يمكنه إدراك ما يقصده البصير عند الكلام على الألوان المختلفة .

النوم وقربه من الموت :

« وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى » : الأنعام : ٦٠

سبق الكلام عن النوم وأنه أقرب شئ للموت ، ولكنه يودى الى الحركة بالنهار ، وحركة النهار تودى الى النوم ، وهكذا فالنوم مثال مصغرموت الانسان ، كما أن حركة النهار مثال لحياته .

بحوث دينية علمية

الماء وضرورته للحياة :

« وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » .
الآية ٥٧ من سورة الأعراف

هذه الآية تفسر ما سبق تفسيره « وجعلنا من الماء كل شيء حي » الخ ، ومعناه أن الحياة لا توجد فى شيء الا اذا كان فيه نسبة مخصوصة من الماء تختلف بحسب أجزاء الأجسام ، ولا يمكن الحياة أن توجد فى شيء جاف مطلقا ، لأن الجفاف يوقف التغيرات الكيميائية التى هى الشرط الأساسى لتغيرات الجسم الحى وقوفا تاما ، وذلك يؤدى الى الموت حتما . والله تعالى يضرب لنا مثلا ويقول : إن الأرض الميتة تحيا بالماء ، أو ليس الله قادرا على أن يحيى الموتى بطريقة مثل هذه الطريقة ولو أننا لا نعرفها ولا تدخل فى متناول إدراكنا ؟

منهأ فاهمة قوم لوط :

« ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون » . ٨٠ ، ٨١ من سورة الأعراف

المهم في هذه الآية من الوجهة العلمية قوله تعالى : « ما سبقكم بها من أحد من العالمين » ، لأن الآية تفسر ما قلناه سابقا من أن الله خلق آدم كاملا ، وما يطرأ من النقص في ذريته جسما وعقلا هو نتيجة السنن الإلهية ، وهذه الفاحشة المشار إليها في الآية هي نتيجة تغيرات في إفرازات الغدد الصماء ، وهذه الأمراض لم تصب الإنسان لأول مرة إلا في مدة لوط ، وهذا يفسر لنا التاريخ الطبي للأمراض من أن لكل مرض بداية لم يعرف قبلها ، وإذا عرفنا أن الغدد الصماء تؤثر في أخلاق الشخص وعقله ، بل هي أساس كل ما هو مهم في شخصيته ، جاز لنا أن نقول إن اختلاف الأمم في أخلاقها وعاداتها هو نتيجة تغيرات في الغدد ، وذلك تابع لما يصيبها من جراثيم أو حوادث طبيعية ، والجراثيم أهم أمثالنا تصيب الإنسان في أزمان مختلفة .

ولهذا كان الفرق بين كمال أول المخلوقات وبين النقص الشديد في بعض الأفراد هو نتيجة للسنن الطبيعية ، والله الذي لا يخفى عليه شيء ، قدرها من أول خلقه آدم وخلق الجراثيم الخ ، وعلم تأثير التغييرات في عقول الأفراد وأخلاقهم ، وعلم ابتداء ظهور الأمراض الاجتماعية «ولو شاء لهذاكم أجمعين» . والله في ذلك حكمة نرجو أن نوفق للكلام عليها في المستقبل . والمهم أن الانسان الأول خلق كاملا طاهرا من كل عيب ، وكل ما ظهر من عيوب في ذريته هو نتيجة تصادم بين مخلوقات وعوامل مختلفة ، وفي هذا رد معقول على الذين يقولون : «كيف يخلق الله الانسان مع أن فيه عيوباً كثيرة والمخلوق منسوب للصانع ؟» .

فصور النساء :

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك ، قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين» .

الآية ١٤٣ من سورة الأعراف

هذه الآية تفسر ما قلناه سابقا من أن الانسان تنقصه

الحواس التي بها يرى الله جل وعلا ، ولذلك أمر الله سيدنا موسى بأن يرى تأثير القدرة الإلهية في ذلك الجبل ، وهذا طريق للإيمان أقرب لعقول بني آدم من رؤية الخالق ، ولو شاء الله لأعطاه من الحواس ما يمكنه من رؤيته ، ولكن الله يقول له : إني أعطيتك من الحواس أكثر مما أعطيت باقي المخلوقات مما يمكنك به أن تكلمني لا أن تراني ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » . وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا ، ويفسر ما قلناه عن علوم الغيب . فالإنسان الذي لا يعرف من الغيب إلا بقدر ما يعرف من سنن طبيعية يسمى جاهلا مهما عرف ، لأن قوانين السنن الطبيعية لا أحد لها .

كذلك الأنبياء عليهم السلام بالنسبة لعلوم الغيب ، فهم من النوع الثاني الخارج عن السنن الطبيعية وعن إدراك الإنسان ، لأن الله يصطفهم ويعطيهم من الحواس والادراك ما يؤهلهم لما يريد من المعجزات على أيديهم فقط ، وأما باقي علم الله الذي لا أحد له فلا يعلمه إلا الله . وهذا هو معنى قوله تعالى لسيدنا موسى ما معناه : إنك لا يمكنك أن تراني. وإنك

ستكلمنى بما أعطيتك من مميزات لم أعطيها لغيرك . وهذا هو
معنى الآية الكريمة على لسان النبي صلى الله عليه وسلم :
« ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب » وقوله
تعالى : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما
مسنى السوء »

والفرق بين وجود دراهم معدودات عند النبي وبين
خزائن الله ، مثل الفرق بين معرفة النبي لبعض الغيب وبين
مفاتيح الغيب كلها التى لا يعلمها إلا الله

القرآن وعلم الأجنة

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا »
١٧٢ من سورة الأعراف .

هذه الآية الكريمة تنص على أن الله أخذ ذرية بنى آدم من ظهورهم . والمعروف أن الخصى موضوعة في الجزء الأسفل لا في الظهر ، ولكن الله تعالى يتكلم عن خلق الإنسان وذريته ، ونشأته ، ولذا هو يتكلم عن علم Empryology أو « علم الأجنة » ، ويتكلم عن الجزء الذي يخصص للنطفة في جسم الجنين . وهذا الجزء في الظهر عند أسفل الكليتين تماما ، ومن هنا تنمو الأعضاء التي تكون الخصيتين ، وتبقى في الظهر تحت الكليتين حتى الأشهر الأخيرة من حياة الجنين في بطن أمه ، ثم تنحدر إلى أسفل ، وعند الولادة تكون في مركزها الطبيعي المعتاد . وقد يتأخر الانحدار أحيانا ويولد الشخص وخصيتاه في البطن ، ويسمى هذا في الطب الخصية غير النازلة

فآية الكريمة تشير والحالة هذه الى النقطة الأصلية في جسم الجنين التي تؤخذ منها النطفة ، وهذه هي الظهر بلا شك . ولما كان علم تشريح الجنين لم يتقدم إلا في المائة السبعة الأخيرة ، فان هذه الآية تعد في حكم المعجزات ، وثبت أن القرآن لا يأتيه الباطل أبدا .

وكذلك مركز المبيض في أثى الجنين ، فانه في الظهر تحت الكلية تماما ، وسواء أكان الانسان ذكرا أم أنثى فإن الذرية تؤخذ من الظهر .

أما باقى الآية الكريمة « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم » الآية ، فمعناه ظاهر مما سبق لنا ذكره في علوم الغيب والسنن الطبيعية ، لأن كلا من المبيض والخصية مكون من نطف عديدة تنمو بالسنن الطبيعية وتصير إنسانا ، ولا يعرف الانسان هذه النطف إلا إذا تحدثها القوانين الإلهية ونمت الى درجة الآجنة على الأقل . وكذلك لا يعرف الانسان شيئا من مستقبلها أو كنهها إلا بمرور الزمن ، ولكن صانعها يعلم كل ما ستؤول اليه في المستقبل ، ويعلم كذلك الانسان الكامل في النطفة ، التي هي صورة مصغرة له كما قلنا ، وتمثل كل صفات الشخص ، وكل ما يرثه تماما ، ولهذا نجد الخالق

سبحانه وتعالى يخاطب ذرية بنى آدم وقت خلقهم وهم فى عالم
الذر ويعلمون خالقهم وهو يشهدهم على أنفسهم .
وأما الصورة المكبرة لهم — فى شكل الانسان —
فكثيرا ما تنسى خالقها الأول بسب ما يطرأ عليها من
حوادث طبيعية تؤثر بمرور الزمن فى الجسم والعقل
والأخلاق ، وقد يكون التأثير شديداً فتصدق عليهم هذه
الآية « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ » .

تأثير العواطف في الجسم

«وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» :
٦٣ من سورة الأنفال

تظهر هذه الآية الكريمة في الأول صعوبة الفهم ، لأن
الشخص الذي يكره آخر ويقال له إن كراهتك إذا انقلبت
محبة فستعطي جزاء كبيرا يعوض عليك كل ما يكون سببا في
هذه الكراهة ، إن هذا الشخص قد ينسى كراهته ، وقد
يستبدل بها ألفة ، ولا سيما إذا كان الجزاء كبيرا ، والله يقول :
« لو أنفقت ما في الأرض جميعا » . فالحقيقة أن الكراهة
والألفة قد تكون نتيجة لأسباب ظاهرية بسيطة لا تصل
إلى العواطف القلبية ، ومتى كانت كذلك أمكن الاستعاضة
عنها ، بل استبدالها بسهولة ، فإن السائل الذي يطلب إحسانا
ثم لا يعطاه يكره المسئول ، ولكنه ينقلب إلى شكره وحمده
إذا أجاب سؤاله .

وقد تكون الكراهة والألفة من «العواطف» أو القوى

الحيوانية المنفعلة التي تنتج عن أسباب ظاهرية تتكرر فتحدث تغيرات عضوية في أعضاء الجسم ، وخصوصا المخ والغدد الصماء ، وقد لا يكون للكراهة سبب ظاهر . على أنه في كل من هاتين الحالتين تكون الكراهة أشبه شيء بالغرائز الطبيعية ، ويكون أساسها تغيرات كيميائية في المواد العضوية الحية ، وتحدث هذه التغيرات مع التكرار أمراضا عضوية في الأعضاء لا يمكن الشفاء منها ، وكثيرا ما تكون ذكرى العاطفة أكبر محرك لزيادة المرض ، وقد كثرت الأدلة على تأثير العواطف في أعضاء الجسم ، وقد بحث هذا كثير من علماء السكواوجيا ، مثل (ادلر وينج) وغيرهما .

ومهما جاهد الشخص في أن يغير من عاطفته فلن يفلاح . والام التي ترى ابنها يعذب يوميا بيد إنسان ما حتى ترى نهايته ، لا يمكن أن ينقلب كرهها محبة قلبية مهما عوضت من ذلك ، لأن التغيرات العضوية التي تحدث في الأعضاء تمنعها من محبة هذا الشخص ، وتحتاج الى تغيرات عضوية أخرى لتبدل بشغورها آخر . ومثلها في ذلك مثل الذي فقد حاسة ، فإنه لا يستطيع الإدراك إلا إذا استردها .

وهذا هو المقصود من الآية الكريمة ، لأن خلق عضو

جديد أو استرداد حاسة ما ، هو من المعجزات التي لو أنفق النبي ما في الأرض جميعا ما أمكنه أن يأتي بها ، وهي جميعا من صنع الله وحده .

وتعتبر هذه الآية الكريمة أيضا في حكم المعجزات إذا علمنا أن (دارون) الذي يكتب عن العواطف في العهد القريب قبل أن يكتب عنها « ينج » لم يفتن الى التغيرات العضوية في الأعضاء ، وأن هذه النظرية آخذة في ازدياد خلال الخمسين السنة الأخيرة ، وإذا علمنا كل ذلك ظهرت لنا حكمة القرآن وعظمته ، وأنه لا يأتيه الباطل أبدا .

ولزيادة الايضاح للقارىء الذى ليس طبيا سأضرب له أمثالا بسيطة على تأثير العواطف في الجسم : فالخوف الشديد الذى يأتي فجأة قد يحدث منه تغيير في الشعر ويصير أبيض اللون ؛ وكذا يحدث البهق في الجلد والاضطراب والعناء المستمر ؛ كذلك يحدث البول السكرى ، وأحيانا لا يكون هذا قابلا للشفاء ، ويؤدي بالاستمرار الى هلاك غدة البنكرياس . وكذلك الكراهة المستمرة قد تحدث تغييرات عضوية في الأعضاء لا تشفى بعد زوال السبب ، وتكون عودتها الى الحالة الطبيعية فوق طاقة الانسان .

التفكير وفهم المخ

« ألا إنهم يَثْنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستخشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور. » الآية ٥ من سورة هود

هذه الآية سهلة الفهم بعد ما تقدمت علوم النفس والتنويم المغنطيسي وغيرها . وظهر جليا أن كل فكرة يقابلها تغيير كيميائي في الخلايا المخية ، وكما أنه لا حركة في الأرجل دون أن يحصل انقباض العضلات ، كذلك لا يمكن أن يفكر الانسان دون أن تحصل تغيرات في خلايا المخ . وليس هذا هو الذي يحصل فقط ، بل إن هذه التغيرات تبقى مسجلة في المخ الباطني ، ومن الممكن أن يتذكرها الشخص بعد مدة طويلة تحت تأثيرات مخصوصة كالانفعالات العصبية أو التنويم المغنطيسي وغيرها ، ولو نسيها الشخص تمام النسيان . وقد اكتشفت أخيراً أجهزة كهربائية يمكن بها معرفة حالة بعض الخلايا المخية إذا كانت في حالة هدوء أو حالة

انشغال . وقد ترتقى العلوم أكثر من ذلك . هذا حال الانسان
مع جهله .

والله سبحانه وتعالى يعلم كل ما يحول في مخ الانسان ،
وكل ما جال في عقله ، وهو تعالى أعلم بها من الانسان نفسه
لأنه عرضة للنسيان .

البرعاء أهم السنن الطبيعية

« ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » :

الآية ٥٢ من سورة هود

سأتكلم عن هذه الآية الكريمة بإيضاح مع آيات أخر تتعلق بالدعاء ، كقوله تعالى : « ادعوني أستجب لكم » و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » و « إذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » و « لئن شكرتم لأزيدنكم » . وفى الحديث « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير... الخ » .

هذه الآيات الكريمة كلها من نوع واحد « وهى تنظم علاقات العبد بالخالق ، وبما أن الدعاء فى كل الأزمان والأديان كان يستعمل لشفاء الأمراض وغيرها ، فله علاقة بالطب من قديم .

والدعاء هو من السنن الطبيعية ، ولكنه مع ذلك ليس من السنن التى يمكن تجربتها آلاف المرات ، وبدقة ، مثل

الأشياء المادية ، لأن له علاقة بالخالق ، ولأنه يدخل في علم الغيب من النوع الثاني ، مثل بدء الخلق والآخرة ، كما سبق لنا تفسيره ، مما لا نعرف منه شيئاً ، بل لا يمكننا معرفة شيء منه إلا بالقدر الذى يخبرنا به الخالق .

وهذه السنن مثل السنن الطبيعية المادية لا تتبدل أبداً ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ولكن المشاهد هو أن الدعاء لا يجاب إلا نادراً ، بخلاف السنن الطبيعية المتعلقة بالمادة ، لأننا نجد النتيجة دائماً كما للنظر ، ولو اختلفت وبخشنا عن السبب لوجدنا سببه سنة أخرى مكمله للسنة الأولى . وهكذا . وهذا هو معنى العلوم . وعدم إجابة الدعاء قد يكون :

١ — لأن الدعاء نفسه ، وهو سنة طبيعية ، قد يكون ضد سنة طبيعية أخرى موجودة فعلاً ، ولا تبديل فيها . فالشخص الذى يدعو ربه ليشفى ابنه مع أنه فارق الحياة — والطبيب يعرف ذلك ولكن الوالد يجهل — لا يقال إن دعاءه لم يستجب ، لأنه يدعو ضد سنة إلهية ، هى أن الميت لن يحيا بسنة طبيعية مثل الدعاء ، ولكنه يحيا باذن الله فقط ، كما فسرناه فى المعجزات . والانسان بطبيعته لو عرف أن ابنه

مات فملا لا يستمر في الدعاء . وكذلك من يدعو الله في شيء تكون نتيجته معروفة محتمة من سنة طبيعية أخرى ولكن الداعي يجهلها ، ولو علمها لما دعا ربه ، فالتاجر الذي يدعو ربه لرواج عمله لا ينتظر قبول دعوته مع استعماله للربا مثلا ، والأمة التي لا تغير ما بها من المنكرات لا تنتظر إجابة الدعوة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . والسنن الطبيعية غير المادية لا حد لها ، ولكن الإنسان لا يعلم إلا النادر منها ، وهذا هو السبب في أن الله لم يجب نوحا عليه السلام حين دعا ربه لأن يكون ابنه معه ، لأن ابنه هذا « عمل غير صالح » ونوح عليه السلام لم يكن يعرف ذلك .

وكذلك في خطاب نبينا عليه السلام « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » لأن العذاب كان حق عليهم ، ولو كان الدعاء ينفع في استبعاد السنن الطبيعية أو تبديلها لنفع دعاء أفضل المخلوقات وأكرمها في ذلك . والسبب في هذا هو أن الدعاء سنة طبيعية كالسنن الأخرى لا تبدل غيرها ، ولكنها تكملها . والرجل الذي يضع ابنه في فوهة المدفع ويدعوه بطول العمر لا ينفع

دعاؤه ، لأن السنة الطبيعية لا تلغى إلا بمعجزة على يد نبي ،
وبإذن الله ، وفي ظروف خاصة .

٢ — وما نقوله هنا لا يفسر كل السبب في أن أكثر
الدعاء لا يجاب ، كما هو المشاهد . والحقيقة أننا نقيس دعاءنا
لله بدعائنا للإنسان ، فالشخص الذي يطلب شيئاً من شخص
آخر ، يطلب هذا الشيء ويقول : إن هذا لمصلحتي ، وأنا
أدرى بها ، وإن لم تفعل ذلك فكأنك لم تجب دعائي وطلبي .
ولكن دعاء الشخص لربه يختلف اختلافاً كلياً ، فإن طلب
شيئاً معيناً مثل شفاء ولده أو رواج بضاعته فإنه يطلبه وهو
يحمل المستقبل ، ولا يعلم إن كان هذا الطلب في مصلحته
ومصلحة ولده أم لا ، وقد يكون المال سبباً في ارتكابه
ما يؤدي إلى عذابه . وقد يكون موت ابنه خيراً له « وعسى
أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو
شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

فاذا أجاب الله دعاء الداعي فإن الإجابة قد لا تكون
كما يريد الإنسان وينتظر ، ولكن كما يعلم الخالق أنه خير
للداعي . والدعاء لله هو تضرع وتذلل ، وهذا هو المهم في
الموضوع ، والغرض ليس النتيجة الوقتية المطلوبة في الدنيا

بل هو رضا الخالق . والمتقون يتركون لسيدهم فعل الصالح لهم ويكفيهم رضاؤه ، وسيان ظهرت نتيجة دعائهم في الدنيا أم لم تظهر ، لأن الغرض رضا الخالق ، وهذا إن لم يظهر عاجلا فسيكون ظهوره آجلا في الآخرة ، وهي الأهم . وقد لا يجاب الدعاء في مدة حياة الداعي : « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم » الآية .

وهنا يظهر جليا أن الدعاء دائما يجاب ، وأنه حقيقة وسنة ثابتة مثل ولادة الانسان وموته ، وأن الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ولكن في الوقت الذي تقضى به حكمة الخالق ، وليس كما يريد العبد . والدعاء هو في الحقيقة طالب هداية ولو كان لشيء مخصوص ، وهنا فائدته الكبرى .

والشخص الذي يدعو ربه ويعلم أنه قريب منه ، يشعر بسعادة وباطمئنان في الدنيا ، حتى لو لم يحب طلبه ، لأنه يعلم أن الله راض عنه ، وأنه هاد له ، و « من يهد الله فهو المهتد » . وهذه نتيجة عاجلة دنيوية للدعاء . فصاحب الدين (المتدين) يصبح في وقت قريب مثل الفيلسوف القانع الذي لا يصل إلى درجته إلا بعد التفكير العميق المضنى ، وهو لا يقبل أن يستبدل بهذا الشعور كل نعيم الدنيا ، ومن هنا كانت سعادة

علماء الدين حتى لو لم يحب الله طلباتهم الدنيوية ، لأنهم يعلمون أنهم مقربون حقا إلى الله . وأنهم ان يكونوا أشقياء أبدا بدعاء ربهم .

والحقيقة أن الطلبات الدنيوية الخاصة الممزوجة بالطمع مثل العلو في الدنيا مع ما فيه من ضرر لآخرين ، تعد غير صالحة ، لأنها ضد سنة إلهية أخرى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا » الآية . وما أحسن الدعوات العامة التي يتعلمها كل مسلم « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

٣ — وكثيرا ما يقال : إذا كان كل شيء مقدرا فما فائدة الدعاء ؟ والحقيقة أن الدعاء كما قلنا مثل السعى للرزق ، وكل أعمال الانسان ، وأنه سنة من السنن التي أمرنا بتصديقها ، فالإنسان يسعى للرزق مع علمه بالمقدر (وسنتكم في ذلك عندما تجيء مناسبة) ويضع البذور في الأرض وينتظر نتيجة نموها مع علمه بالآية الكريمة « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . فالدعاء لا يختلف أبدا عن ذلك ، غير أن الانسان عرف كثيرا من القوانين الطبيعية المادية ، وما زال

يبحث فيها ، ويجرى مجتدا وراء معرقتها ، فإن لم ينجح الزرع
بحث عن السبب ولا يمتنع عن الزراعة .

والانسان جاهل بالسنن غير المادية ، ولم تخلق حواسه
لأجلها ، ولذلك يصعب عليه فهم أسباب الفشل في الدعاء ،
وقد ييأس . ولكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم أعلم
الناس بهذا النوع الأخير من القوانين ، كانوا يدعون ربهم
دائما مهما كانت نتيجة الدعاء .

إذا قلنا إن بذرة القمح تنتج قمحا ، فمعنى ذلك أنها سنة
طبيعية أساسية لإنتاج القمح . ولكن هناك سنن كثيرة
أخرى يجب استيفائها قبل نجاح الزرع ، وهذه كلها مكملات
للسنة الأولى الأساسية ، وهي أن البذرة ضرورية ، فإن نقص
بعض هذه الشروط فإن الزرع لا ينجح ، ولكن قد يستبدل
بشروط أخرى في ظروف أخرى . وأما البذرة فإنها
ضرورية ، ولا يمكن إلغاء هذا الشرط بأي سنة أخرى أبدا .
وهكذا الحال في السنن غير المادية . فالدعاء شرط أساسي
للإجابة ، ولكن يجب استكمال شروط أخرى ، ولكن
الأخيرة لا يمكن أن تلغى قيمة الدعاء .

والخلاصة أنه يجب أن نستمر في الدعاء لقضاء حاجتنا

كيتقانون إلهي ، وهو للمريض مثل الدواء أو الطبيب ، وسواء أظهرت فوائده أم خفيت علينا فلن يكون بدون ثمرة

شفاء سيدنا يعقوب وطريقة :

« وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ٨٤ من سورة يوسف
البياض المصحوب بضياغ البصر غالبا معناه « الجلو كوما » .
والمعروف عند الاختصاصيين فى أمراض العيون أن أهم سبب لها هو التغيرات فى الأوعية الشعرية ، نتيجة لأسباب كثيرة من أهمها الانفعالات العصبية (كما يحدث فى زيادة ضغط الدم) لا سيما الحزن (الدكتور سلر) .
« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بهميرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون » :

لا تتحسن أعراض مرض « الجلو كوما » أو « شدة قوتر العين » أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الانسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو

طريقة الشفاء وهى إرادة الله المنحصرة فى « كن فيكون »
وهذه خارجة عن كل السنن الطبيعية التى أمر الإنسان أن
يتعلمها . فعظمة المعجزة ليست فى النتيجة فحسب ، ولكن
فى طريقة الشفاء .

وما أعظم إعجاز القرآن الذى رصف حالة مرضية
خاصة وبين سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئاً عن هذا المرض
ولا عن أسبابه فى ذلك الوقت ، ولا بعده بزمان طويل

ودعاء سيدنا إبراهيم

« ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند
بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس
تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » :

الآية ٣٧ من سورة إبراهيم

آيات القرآن يفسر بعضها بعضاً ، ودعاء سيدنا إبراهيم
يفسر ما قلناه ، وهو أن الدعاء سنة طبيعية لا أكثر ولا
أقل ، فالنبي يدعو ربه ليلهم الناس حج البيت ، فهو يستعين
بسته طبيعية ، وهى إلهام الخالق لنا ، مع أنه يعلم أن الله قادر
على أن ينزل عليهم رزقا من السماء ، ولكن النبي ضرب لنا

مثلاً في طريقة استعمال الدعاء وقيّمته ، فالدعاء لا يلغى سنة طبيعية ولا يأتي بالمعجزات ، ولكن الداعي يطلب من الخالق الهداية إلى إحدى السنن الطبيعية ، وسأضرب لذلك مثلاً بالنسبة للمريض وعلاجه ، فقد أخبرني البعض أن من يطلب الطبيب لا يستعين بالدعاء . والحقيقة غير ذلك ، فالوالد الذي يدعو ربه لشفاء ولده :

١ — لا فائدة من دعائه إذا كان الولد قد مات فعلاً ، كما قلنا سابقاً .

٢ — لا فائدة من دعائه إذا كان مرضه مميتاً حتماً ، وليس له علاج في ذلك الوقت ، لأن الدعاء لا يخلق سنة جديدة ، ولا فائدة كذلك من أى علاج لأن المريض تحت تأثير سنة طبيعية ، وهي أن هذا النوع من المرض يميت حتماً وعلاجه لم يكتشف إلى اليوم ، ولا فرق بينه وبين من مات فعلاً أو فقد عضواً من أعضائه لا يمكن الاستعاضة منه بغيره ، ولو أراد الله شفاؤه لما مرض بهذا المرض .

٣ — قد يكون المرض طرق علاج ، أو قد يشفى من نفسه في ظروف خاصة ، فالدعاء في هذه الحالة معناه إلهام المريض ومن حوله من طبيب وغيره باستعمال الطريق المؤدى

إلى الشفاء ، والطبيب يحتاج دائماً الى هذا الإلهام ، وكم من مرة يقف في مفترق الطرق ولا يدري أية ناحية يسلك ، وكل طريق سنة طبيعية تؤدي الى نتيجة خاصة ، والدعاء هداية الى السنة المؤدية الى الشفاء . وهكذا يكون الدعاء والتطبيب وكل أعمال الانسان يكمل بعضها بعضا ، ولكنها ليست متناقضة .

فدعاء سيدنا ابراهيم معناه أن الله يلهم الناس بواسطة القوانين الطبيعية حج البيت ، وقد يقال : « ولكننا لا نشعر بإلهام من عند الله ، وكل أفعالنا نتيجة مباشرة لتفكيرنا ، والشخص الذي يحج لا يشعر بالإلهام أو بشيء خفى » .
والحقيقة أن أفعال الانسان قد تكون :

١ — نتيجة تفكيره واختباراته ، ويكون سبب حر كاته ظاهراً .

٢ — قد تكون أفعاله غير منطبقة على تفكيره واختباراته الأخيرة ولكنه مع هذا يندفع الى العمل . وقد ظهر بطريق الفحص العلى المسمى (Psycho-analysis) (التحليل النفسى) وبطريق التنويم المغنطيسى أن هذه الأفعال يمكن تفسيرها بتجارب واختبارات حصلت للشخص

فى زمن سابق ، وبقيت فى مخه الباطنى (Subconscious)
وقد يكون نسبها تماماً ، ولكنها تؤثر دائماً فى أفعاله الحاضرة
دون علمه .

٣ — قد تكون الأفعال كالنوع الثانى ، ولكن ليس
من السهل على علماء النفس تحليلها أو ردها الى تجارب
« الارادة الخفية » . وفى اعتقادى أن بعض هذه الأفعال
كالأوامر التى يقوم بها المنوم « بفتح الواو وتشديدها »
امثالاً لأمر المنوم « بكسر الواو وتشديدها » حتى بعد
اليقظة ، وهو يعتقد أنها من عنده ، ولا يشعر بأنها من تأثير
إرادة خارجة عنه .

وقد تكون هذه الأفعال من تأثير إرادة أشخاص آخرين
أو أشياء جامدة ، وما أكثر الأشياء التى يؤثر على الانسان
فعالها كالتنويم تماماً ، ولا يشعر الشخص بها إلا كما يشعر
فى النوع الثانى ، ثم لا تعرف الا أنها نتيجة لارادته .
والحقيقة أنها هداية من الله بواسطة حواس غير الحواس
الاعتيادية ، خلقها الله فى الانسان ، ولم يدرسها العلم بعد ،
وهذه كالمَنُوم « بفتح الواو وتشديدها » تؤثر فى أفعاله بغير
أن يعرف مصدرها ، وقد ثبت لبعض علماء الفزيولوجيا

وجود حس في بعض الأفراد على الأقل سموه الحس السادس
وكثيرا ما نشاهد أشخاصا لا يفكرون في الحج مدة طويلة ،
ولكن فجأة وبدون سبب ظاهر يهضمون على الحج وينفذون
إرادتهم ، وهذا العمل ظاهره الاختيار طبعاً ، ولكنهم
مدفوعون بقوة مسيطرة عليهم أشبه بالغريزة أو الوحي
(Impulse) . وقد أجاب الله النبي الى دعائه ، فألهم الناس
الحج في آلاف السنين ، والى ما شاء الله ، لا في مدة حياته
فحسب . وفي هذا إظهار لقدرة الخالق وصدق وعده .

القرآن ولقاح الأزهار والنبات

« وأرسلنا الرياح لتواقيحَ فأنزلنا من السماء ماء
فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » :

الآية ٢٢ من سورة الحجر

لقاح الأزهار والنباتات على العموم يحصل من شجرة الى
شجرة بواسطة الهواء أو الحشرات ، أو بواسطة الانسان ،
وأهمها الهواء . والقرآن يتكلم عن فائدة من فوائد الهواء
الذى ينقل نطفة الذكر الى الأنثى ، وذلك قبل أن يتقدم علم
تشریح النباتات ، وقبل أن يعرف شيء عن ذلك بمدة طويلة ،
فما أصدق القرآن وما أعظم إعجازه !

طريقة انجاز ارادة الخالق

« إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » :
الآية ٤٠ من سورة النحل

هذه الآية الكريمة تعلمنا طريقة انجاز ارادة الخالق ،
وهي تختلف عن انجاز ارادة كل المخلوقات ، فالانسان
يستخدم السنن الطبيعية المادية بازدياد العلوم وتقدمها ، فهو
يعرف مثلا أن بذرة القطن لا يمكن أن تنتج قمحا ، وأنها لا
تنتج غير القطن ، وأنها تموت بدون الماء ، وهكذا تجرى
السنن التي لا تتبدل أبدا ، ويستخدم المخلوق أيضا بعض سنن
غير مادية أمرنا الله بها ، مثل « ادعوني أستجب لكم » ومثل
« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم
فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا » ومثل « لئن شكرتم
لأزيدنكم » ، فهذه أيضا سنن ثابتة لا تبدل فيها ، مثلها مثل

الأولى تماما ، ولو أن من الصعب علينا تطبيقها ، بخلاف السنن المادية . والأنبياء عليهم السلام يعلمون كثيرا من النوع الثانى « وإنه لذو علم لما علمناه » فى قصة يعقوب .

أما الخالق جل وعلا فارادته ليست مقيدة بسنة أبدا ، ولا نعلم من طرق انجازها إلا « كن فيكون » . وهذا هو الفرق الأساسى بين المعجزة التى من صنع الله مباشرة ، وبين أفعالنا المقيدة بالسنن الإلهية .

العسل

في القرآن والطب الحديث

«ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذُلُلاً، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» الآية ٦٩ من سورة النحل

ما أصدق الآية الكريمة «فيه شفاء للناس» عند ذكر عسل النحل وتركيبه الكيماوى، وهو:

٢٥ — ٤٠ ٪ دكستروز (جلوكوز)

٣٠ — ٤٥ ٪ ليفيلوز

١٥ — ٢٥ ٪ ماء

(والجلوكوز) الموجود فيه نسبة أكثر من أى غذاء آخر هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب، فيعطى بالفم، وبالحقن الشرجية، وتحت الجلد، وفى الوريد، ويعطى بصفته مقويا ومغذيا، وضد التسمم الناشئ من مواد خارجية مثل الزرنيخ والزئبق

والذهب والكلوفورم والمورفين الخ ، وضد التسمم الناشئ
من أمراض أعضاء في الجسم مثل التسمم البولي ، والناشئ
من أمراض الكبد والاضطرابات المعدية المعوية ، وضد
التسمم في الحميات مثل التيفويد والالتهاب الرئوي والسحائي
المنحى والحصبة ، وفي حالات ضعف القلب وحالات الذبحة
الصدرية ، وبطريقة خاصة في الارتشاحات العمومية الناشئة
من التهابات الكلى الحادة ، وفي احتقان المنخ ، وفي الأورام
المنجية الخ .

وقد يقال : وما أهمية هذه الآلية مع أن كل أنواع الغذاء
لها فوائد ، وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق
المصادفة ؟ فالحقيقة هي أن أنواع الغذاء الأخرى لا تستعمل
كمعالج إلا فيما ندر من الأمراض الناشئة عن نقصها في الغذاء
فقط . وهذه الفواكه التي تشبه العسل في الطعم فان السكر
الذي فيها هو سكر القصب أو أنواع أخرى ، ولكن ليس فيها
إلا نسبة ضئيلة من « الجلوكوز » الذي هو أهم عناصر العسل .
وإذا علمنا أن (الجلوكوز) يستعمل مع (الأنسولين)
حتى في حالة التسمم الناشئ عن مرض البول السكري ، علمنا
مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة ،
ولكنه تنزيل من خلق الإنسان والنحل ، وعلم كلا منهما
علاقته بالآخر

القرآن وبدا الخلق

والحياة والموت وما بعده

« يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا »
سورة الحج الآية ٥

« ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون » .
سورة المؤمنون الآيات ١٢ — ١٥

« أمن يبدأ الخلق ثم يعيده » سورة النمل الآية ٦٤
« أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ

الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، إن الله على كل شيء قدير»

سورة العنكبوت الآيتان ١٩ و ٢٠

«الله الذى خلقكم من ضَعْف ، ثم جعل من بعد ضعف

قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو

العليم القدير » سورة الروم الآية ٥٤

« ما خَلَقَكُمْ ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع

بصير . » سورة لقمان الآية ٢٨

«الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين .

ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من

روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . قليلا ما

تشكرون . » سورة السجدة الآيات ٧ — ٩

« إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل

شيء أحصيناه فى إمام مبين . » سورة يس الآية ١٢

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض

ومن أنفسهم وما لا يعلمون . » سورة يس الآية ٣٦

« يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات

ثلاث ، ذاكم الله ربكم له الملك » سورة الزمر الآية ٦

« إذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » .

سورة ق الآيتان ٣ و ٤

« وقد خلقكم أطوار » « والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا » .

سورة نوح الآيات ١٤ و ١٧ و ١٨

« ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقد رنا فنعم القادرون » .

سورة المرسلات الآيات ٢٠ — ٢٣

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق »
سورة العلق

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم »

سورة الزلزلة

« وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »
سورة الاسراء الآيتان ١٣ و ١٤

« ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد

كل أولئك كان عنه مسئولا .

سورة الاسراء الآية ٣٦

« ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه
ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا
كبيرة إلا أحصاها . ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم
ربك أحدا » سورة الكهف الآية ٤٩

« حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم
وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟
قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . »

سورة فصلت ٢٠ و ٢١

« وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه . »

سورة الروم ٢٧

هذه الآيات الكريمة يفسر بعضها بعضا ، وبعضها لا بد
أنه كان صعب الفهم على العرب وقت نزوله ، وهو ما يزال
كذلك ، إلا إذا نظر اليه على ضوء العلم الحديث ، وسيزداد
وضوحا بلا شك كلما تقدمت العلوم .

إن العالم الكبير إذا دعى لمخاطبة أطفال أو جهلاء فانه يخاطبهم على قدر عقولهم ، ولكنه لا يقول إلا حقا ، وعند الضرورة يقول الحق كله ، ولذا قد يسمعونهم بعض ما لا يفهمونه ، فان تكلم عن تعريف القاهرة مثلا ، فقد يقول إنها عاصمة القطر المصرى أحد ممالك أفريقيا ، مع أنهم قد لا يعرفون معنى «لأفريقيا» ولكنهم يفهمونها بعد أن يزيد رشدهم . ويرى العالم أن التعريف بدون لفظة إفريقيا ناقص . وسيظهر نقصه لهم فى المستقبل .

كذلك الحال فى بعض آيات الكتاب الكريم ، فالقرآن ليس كتاب طب أو هندسة أو أى علم من العلوم . ولكنه وقد رد على أسئلة المشركين ، كان يجيبهم على قدر عقولهم ، على أنه لا يقول إلا حقا ، فالأمة العربية التى كانت فى أعلى درجات الفصاحة آمنت به وبما أمكنها فهمه من آياته ، وما لم يمكنها فهمه ردتة الى المجاز ، أو آمنت به اجمالا ، ولو لم تفهم تفصيلا ، لو ثوقها أن كل ما جاء فى القرآن هو من عند الله تعالى .

أما من خلفوا الأمة العربية بعد ذلك فقد قلت فصاحتهم وزاد إدراكهم ، فهم يحكمون عليهم ، ولا يصدقون ما لا

ينطبق عليه ، وقد كشف العلم الحديث عن معنى بعض الآيات ، وسينكشف الباقي منها كلما تقدمت العلوم ، ثم يأتي وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين .

وفي الآيات القرآنية المتقدمة كثير من الحقائق التي لم يعلمها العلماء إلا بعد مرور ألف سنة على الدين الاسلامي «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» . هذه الآيات تجيب بصراحة على أربعة أسئلة ما فقه الانسان ، الجاهل والفيلسوف ، يبحثان عنها كل منهما على قدر عقله :

(١) كيف بدى الخلق ، أى كيف خلق أول إنسان ، وكيف يخلق باقى المخلوقات ؟

(٢) تطورات الجنين

(٣) حياة الانسان على الارض وبعد الموت

(٤) النشأة الثانية أو البعث أو الحساب

١ — بدأ الله الخلق من طين ، ولم تتقدم العلوم لتثبت ذلك ، وسيأتى الوقت الذى يثبت فيه هذا حتما « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » . وكل ما يقال عن مذهب النشوء والارتقاء ومذهب «دارون» الخ ، لا يزال فى

دور التجربة ، ولم يثبت منه شيء بصفة قاطعة أبدا . وما
يسهل فهمه أن خلق أول المخلوقات هو من نفس المادة التي
يخلق الله منها جميع المخلوقات . وقد أخبرنا القرآن أنها من
ثلاثة أشياء :

(ا) مما تنبت الأرض .

(ب) من أنفسهم .

(ج) مما لا يعلمون .

(ا) فالجسم الحى ينمو بأن يحول ما يأكله الى جزء حى
من جسمه ، وهذه هى أهم مميزات الحى ، وما يأكله الطفل
حتى يصير رجلا لا يخرج عن كونه مأخوذا من الحيوان أو
النبات . والحيوان أصله من النباتات ، فالكل مأخوذ من
النبات الذى ينمو من مواد الأرض والهواء . وهكذا يكون
جسم الانسان كله من الطين الذى يتحول بقوة الحياة فيه
كما يتحول الماء الى بخار بقوة الحرارة .

(ب) « من أنفسهم » أى من النطفة التى تمنى .

(ج) « مما لا يعلمون » تفسرها سورة السجدة « ثم

سواه ونفخ فيه من روحه » . فهناك شيء آخر هو « الروح »
وهو خارج عن الطين ، وقد تقدمت علوم المادة حتى ظن

العلماء أن المخ والغدد ذات الافرازات الداخلية تقسر كل أفعال الانسان ، ولكن كثيرا منهم أخذ يعترف بأن هذا لا يكفي ، وذهب فريق الى أن بعض الأشعة الكونية النائية قد يكون له تأثير في المادة المخية . وما زلنا لا نعلم كثيرا مما يقع بين علماء المادة ، وعلماء المادة والروح من سوء تفاهم ، فيقول الأولون : إن المخ اذا أصيب بمرض تأثرت القوى العقلية بل الأخلاق وغيرها الخ . وهذا دليل على أن المادة هي كل شيء . ومن المدهش أن من أكبر العلماء من يحتاج بذلك على أنه لا وجود للروح ، مثل « كيث وسمث » وغيرهما . والحقيقة أن المادة ضرورية لظهور شيء خفي عنا ، ومثلها مثل عدة المسرة « التليفون » فانها ضرورية لسماع صوت من يتكلم ، واذا أصيبت المسرة بضرر اختل الكلام ووقف ، ولكن المسرة ليست منشأ الكلام مطلقا ، وقد أقنع شرلوك هولمز كثيرين من معارضييه بذلك . وهذا لا يثبت طبعا وجود الروح ، ولكن يجعله ممكنا . وهذه هي آخر درجة معرفتنا ، أو بالأحرى (جهلنا) . والمهم أنه لم يظهر شيء للآن يتنافى مع هذه الآيات

والله جلّت قدرته يخاطبنا على قدر عقولنا ، ويتكلم عن

النشأة الأولى وعن بدء الخلق ، كأنه تعالى قد اختص ببدء الخلق فقط ، مع أن الله بدأ الخلق وسن السنن الالهية الطبيعية (ومنها خلق السكون كله) التي لا تبدل فيها أبدا لكي تكفل وجود النوع الانساني ما دامت السموات والأرض . وهكذا يكون معنى خلق آدم عليه السلام بعد خلق السموات والأرض والسنن الالهية ، خلق العالم كله الى النهاية التي أرادها الخالق وقت بدئها . وإذا كان صانع « الأوتوموبيل » عند ما يأتي بالمواد الخام التي يستعملها يتصور في مخيلته شكل الأوتوموبيل النهائي وسرعته الخ مع أنه لا يتحكم في الحوادث التي قد تطرأ عليه ويجهل كثيرا منها ، أفلا يعلم الخالق الأول كل ما سيكون عند بدء الخلق مع أنه واضح السنن كلها ، وهذه السنن لا تتغير أبدا ؟ فالحقيقة أن الله بدأ الخلق ، والله خلق كل شيء ، وهذا هو معنى الآيات « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » و « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث » .

٢ — تطورات الجنين : يقول تعالى : إنه يكون أولا نطفة ثم يصير علقة . وصحيح أن شكله يكون مستطيلا مثل العلقة تماما ، ويستمر كذلك في الأربعة الأسابيع الأولى تقريبا .

وإذا عرفنا أن طوله حيثئذ لا يزيد على خمس السنتيمتر الواحد، وأنه لا يميز بالعين المجردة تماماً، وأن أول ميكروسكوب عملت في سنة ١٦٨٣ أى بعد ألف سنة من نزول القرآن — عرفنا أنه كلام الله تعالى .

على أن الجنين يصير بعد ذلك مستديراً بغير انتظام ومكورا ، ويبقى كذلك بضعة أسابيع . وقد سماه الخالق مضغة لكثرة الشبه بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة ، وبعدها تظهر العظام واللحم (العضلات) التي تتصل بها كما وصفت تماماً .

ويعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات ، هى الغشاء المنبارى ، والخوروبون ، والغشاء اللفائفى (الترجمة من قاموس الدكتور شرف) مع أنها لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق ، وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة .

وقد ظهر للعلماء أن تاريخ الانسان الجنينى هو تاريخ للحياة منذ بدئت على ظهر الأرض ، فهو أولا يشبه الحيوان ذا الخلية الواحدة ، ثم ذا الخلايا المتعددة ، ثم يشبه الحيوانات المائية والحيوانات ذات الثديين الخ ، وتاريخه مذهب النشوء والارتقاء .

وقد لخص القرآن ذلك في قوله : « وقد خلقكم طوارا »

٣ — حياة الانسان والموت .

٤ — بعثه وحسابه .

ادوار حياة الانسان كما وصفها الكتاب الكريم :

لقد وفي هذه المسائل حقها من البحث العلماء وخصوصا الأطباء ، وهي تطابق تماما ما ورد في القرآن الكريم . وأما الموت فقد شبهه الله بالنوم ، وما أعظم الشبه بينهما ! والنوم هو موت جزئي للأعضاء ، وكما أن النائم يستيقظ كما يشاهد ، كذلك الميت أيضا يستيقظ ولو لم يشاهد ، إلا باذن الله وعلى أيدي الأنبياء ، ومن لم يشاهد ذلك يجادل ويقول : كيف نبعث ثانية بعد أن نكون عظاما وترابا ؟ والله يجيب على ذلك بقوله : إن الانسان خلق من طين ، وإنه يعلم ما يدخل في تركيبه علما تاما « ألا يعلم من خلق » « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » . وبهذا يمكنه أن يعيده سيرته الأولى .

وتتحول المادة من شكل الى شكل ، ولكنها في صندوق الكون لا تفنى أبدا ، وكما أن الماء لا يفنى بتحويله إلى ثلج

أو بخار، كذلك يتحول الطين إلى نبات وحيوان، ثم إلى جسم إنسان، ثم إلى التراب ثانياً، ثم يعيده الله كما كان.

وقد علمتنا العلوم أن معنى «كتاب حفيظ» ليس بالمعنى المعروف، ولكنه سجل أدق وأوفى. والانسان الضعيف قد صنع آلات تسجل من نفسها، والله صنع هذا السكون كله كآلة عظيمة تسجل كل شيء «كتاب حفيظ». فالانسان إذا تكلم انتشر صوته في الفضاء كله دون أن يشعر، بل قد أمكن الانسان أن يسجله ويستعيده عند الحاجة بعد زمن طويل (الراديو والفونوغراف)

وكما أن الصوت يسجل تسجيلاً، أفلا يكون ذلك بالنسبة لكل حركاته وسكناته، بل قد يتقدم العلم ونعرف أن أفكار الانسان يمكن قراءتها على بعد كبير، بل يمكن تسجيلها. فالانسان جسم صغير في آلة كبيرة دقيقة حساسة تتأثر وتسجل كل حركات هذا الجسم وما يطرأ عليه لتستعيده عند الحاجة.

وقد شبه الله هذا التسجيل بآثار القدمين التي يعرفها العرب جيداً، فقال «إنا نحن نحصى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين». وهذا هو كتاب السكون

الذى يقول الله فيه : « لا يضل ربي ولا ينسى » وه شاهد عليهم
سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » ويقولون :
« لم شهدتم علينا ؟ » فتقول : « أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء
وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » . ويقولون « ياويلتنا
ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ،
ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً » . وسيرى
الإنسان أعماله نفسها فى المرآة ، ويرى صورة دقيقة لكل
أفعاله وأفكاره كما كانت تماماً ، فهو نفس المتكلم ونفس
الفاعل « وكلّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم
القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم
عليك حسيباً » .

والسنن الطبيعية علمتنا أنه لا يوجد شيء فى هذا الكون
بلا فائدة ، فالإنسان مع ضعفه قد استخدم السنن الطبيعية
وأمكنه أن يسجل الصوت ويستعيده بعد زمن طويل ، أفلا
يكون هذا دليلاً على أن التسجيل لا بد أن يكون لمهمة
كبيرة ، وأن الطبيعة لا تسرف أبداً ؟ « إنا كلّ شيء خلقناه
بقدر »

فالله يسجل كل حياة الإنسان ليستعيدها يوم البعث ، وهذا

أهون من بدء خلق الإنسان ، فالنشأة الثانية إعادة ، وهى
أهون من الأولى ، وهما بالإضافة الى قدرة الله تعالى سيان ،
كما قال الله تعالى : « رهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو
أهون عليه » . وهكذا نرى القرآن لا يبالغ أبداً كما نفهم من
معنى المبالغة فى كلامنا ، حتى فيما لا ندركه تماماً .

وقد يقال : إن إحياء الموتى قد يكون فى المستقبل على يد
أطباء مع أن الله يقول : « إنا نحن نحي الموتى » وذلك لما
يقرؤه الناس أحياناً فى الجرائد عن إحياء الميت ورجوع
الحياة إليه بعد وقوف علاماتها مثل التنفس والنبض .
والحقيقة هى أن هناك فرقاً كبيراً بين الموت العادى كما
يفهم الناس من وقف الأعضاء عن العمل كعدم اشتغال المخ
أو وقوف القلب ، وبين الموت العلمى الحقيقى ، وهو لا يكون
بوقوف عمل الأعضاء فقط ، ولكنه يكون بموتها . ولو أخذ
القلب من ميت عادى بعد وقوف ضرباته ووضع فى محلول
مخصوص لاستأنف ضرباته كما كان فى جسم الإنسان من
بضع ساعات ثم يموت ، ولا يمكن أن يضرب بعد ذلك مهما
عمل فيه . وهذا هو الموت الحقيقى الذى يتحلل بعده الإنسان
إلى عناصره الأولى . وقد يتوصل الطبيب — وقد توصل

أحياناً — إلى إعادة الحياة في الميت العادى ، أى أن القلب يعود فيضرب مدة قصيرة بعد وقوفه ، وقبل أن يكون قد بدأ فى التحلل ، أى قبل موته الحقيقى .

وأما أن العلم يصل إلى إعادة الحياة بعد التحلل فهذا مستحيل ، لأنه لا فرق بين إعادة الحياة إلى جسم ميت تماماً ، وبين إيجاد حياة فى الجهاد مثل الطين .

الإنسان والكون

ومكنة المصائب وفصوصا الإصرام

يسأل كل عاقل نفسه : (١) ما علاقته بهذا الكون
وال مخلوقات العديدة التي تحيا وتعيش مثله ، وتمتع بكل ما
يتمتع به من المادة : هل خلق الكون لأجله ؟ وهل هو أرقى
من كل المخلوقات التي يراها والتي قد لا يراها ؟

(٢) إذا كان الانسان أرقى المخلوقات فلم تغلب عليه
الطبيعة أحيانا ، وقد تذهب بحياة الألوف من أفرادها ،
وكثيرا ما تؤذيه حيوانات صغيرة لا ترى بالعين المجردة أو
بالميكروسكوب ، وتتولد بسرعة مذهشة في جسمه وتقضى
عليه كما يقضى هو على الحيوانات التي يستعملها في غذائه ،
وقد تعيش الحيوانات السفلى مثل الناموس والبق والقمل

على دمه ، بل في الوقت نفسه تلقحه بأمراض مهلكة ، وكأنها
لم تخلق إلا للاحاق أكبر الضرر بالانسان ؟
ما السر في كل ذلك ؟

يقول الطبيعيون : لا معنى لذلك إلا أن الطبيعة عمياء
تتخبط ، ومثلها كما لو سرحت جميع الحيوانات من أقفاصها
في حديقة حيوانات كبيرة اظهرت حرب شعواء بينهم كالتى
تحصل الآن . ولا يمكن فى نظرهم أن يكون هذا فعل عاقل
مدرك ، أو نظاما لا تصل اليه عقولنا

أما السؤال الأول : فلا يمكن الاجابة عليه من طريق
العلم ، لأن الحواس محدودة ، وقد يكون هناك مخلوقات
لا ندركها ، وقد تكون أرقى من الانسان وتؤثر فى الطبيعة
وفيه ، ولذا فيجب الايمان بما أنزل الله :

١ — « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى
مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور

٢ — « وفى السماء رزقكم وما توعدون . فو رب السماء
والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » . « والسماء بنيناها بأيد
وإننا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون »

٣ — « الذى جعل لكم الأرض مهذا وجعل لكم فيها سبلا
لعلكم تهتدون »

٤ — « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك
والأنعام ما تركبون . لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة
ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا
وما كنا له مُقِرِّين »

٥ — « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار
مبصرا ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس
لا يشكرون »

٦ — « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك
تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا
بإذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم »

٧ — « والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال
أكنانا وجعل لكم سراييل تقيكم الحر وسراييل تقيكم بأسكم »

٨ — « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين »

٩ — « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا

فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم
له برازقين »

١٠ — « وأرسلنا الرياح لواقح »

١١ — « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ،
والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »
١٢ — « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا
وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه »

من كل هذه الآيات يظهر جلياً أن الأرض والسماء
والنجوم والشمس والقمر والجبال والرياح والنبات والحيوانات
كلها مسخرة للإنسان ، خلقت لفائدته ، ونعمة وبركة عليه .
وهنا يزداد العاقل حيرة ، ويريد الجواب على السؤال الثاني ،
لأنه إذا ثبت أن الكون كله قد سخر ليحيا الإنسان حياة
طيبة ، فلم هذا التناقض وأذى الحيوانات تؤذيه ، وحوادث
الطبيعة كثيرة وتهدم آماله ، وكأنه أمامها لا فرق بينه وبين
الجماد وهو كالريشة في مهب الريح ؟

(٢) والجواب على ذلك أن الله الذي خلق الخلق وعلم
تركيبهم ، علم أن الإنسان الضعيف لا يعرف الشيء إلا بالمقارنة
لشيء آخر ، فالشيء الصغير صغير فقط بالنسبة لشيء أكبر ،
والكبير كبير فقط بالنسبة لشيء أصغر ، والصحة لا يعرفها تماماً
إلا بالمرض ، وكل نعمة لا تعرف جيداً إلا وقت زوالها ، بل

ما أكثر نسيان الانسان ، وقد ينسى معنى الجوع إذا شبع مع أنه كان جائعا من وقت قصير ، ولذا فهو محتاج إلى التذكير دائما ، والقليل جدا من الأفراد يكفيهم العظة بمشاهدة غيرهم ، ومع ذلك فلن تبلغ منهم غايتها إلا إذا كانت في أنفسهم .
هذه هي طبيعة الانسان الذي خلق بها مهما ارتقى . وهذا هو السرفى كل ما يصيب الانسان من أذى على يد الطبيعة ويد الحيوانات ، بل هذا هو السر فيما كان يصيب الأنبياء أنفسهم ، وقد شعروا بالجوع والسجن والهزيمة وكل أنواع العدوان حتى اعتدى عليهم بالقتل .

وإذا كان الدور الذي يمثله الانسان بل والحيوان والجماد . هو تسبيح الخالق « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » « سببح لله ما فى السموات وما فى الأرض » « والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » « والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها »

فهذا التسبيح من الانسان المدرك لا يكون كاملا إلا طوعا

كما نصت عليه الآية الكريمة . وهذا لا يكون إلا إذا علم مقدار نعم الله عليه « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وهذا لا يكون إلا بالحرمان منها أحياناً ، قال تعالى « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » . ونقص الأنفس لا يكون إلا بالمصائب « ونبلوكم بالشر والخير » الذى خلق الموت والحياة لنبلوكم أيكم أحسن عملاً »

وكم من مصيبة أعقبها إصلاح حال الشخص وتركه لكل معصية . وما دامت الدنيا دار امتحان فقط فالغنى السليم لا يفضل الفقير المريض إلا إذا شكر الله الأول ، وجزع الثانى ولم يصبر

وكما أن الذى يقوم بدور الخادم على المسرح ويجيده يعد أعلى درجة فى نظر المتفرجين ممن يقوم بدور الملك ولا يتقنه ، كذلك فى هذه الحياة الدنيا : خادم أمين أعلى درجات عند الله من ملك ظالم ، لأنه — سواء على المسرح أو فى الحياة الدنيا ، وكلاهما هو ولعب — ليس المهم الدور الذى يلعبه الشخص ، لأن هذا يوحى به نوع العمل ، قال تعالى « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » ولكن المهم الطريقة التى يقوم بها الممثل ، والله المثل الأعلى

لو لم يكن فى المصائب فوائد غير ذلك لكفى ، ولكن المبدع الأول والقادر الحكيم أراد أن لا تخلو المصائب فى ذاتها ووقت حصولها من فوائد كثيرة للفرد وللجموع ، وبعضه أثبتته العلم الحديث ولم يكن معروفا بالمرءة قبل خمسين سنة فقط

(١) الأمراض تقضى على كثير من الضعفاء ، ويبقى الصالح للبقاء ، ويكون عنده مناعة Immunity ولو جزئية للنسل ، وبهذا يرقى النوع الانسانى ويزيد فى مقاومة الأمراض وتحدث تغيرات فى الغدد الداخلية تؤثر على جسمه وعقله فتدفعه إلى الامام فى طريق الرقى

ولا يزال العلم فى دور الطفولة بالنسبة للفوائد التى يحنيها النوع الانسانى من الأمراض . والأمثلة كثيرة : فقد شوهده عقب الحمى التيفودية نمو فى الجسم لزيادة إفراز الغدد الصماء ، ومناعة ضد الروماتزم . ومن هنا استعملت الميكروبات (المبية) للتيفود فى علاج الروماتزم المزمن .

وشوهده أن حمى الملاريا تشفى من مرض الزهري فى النخاع والمخ . وقد استعمل ذلك بطريقة منظمة فى كل مستشفيات العالم ، أى يعطى المريض ميكروب الملاريا فى

الدم ، ويحدث عنده حمى ملاريا باختياره لشفائه من أمراض أخرى أشد وطأة .

وسم الحية والثعبان يستعمل في الروماتزم المزمن وألم السرطان . كذا الالتهاب الرئوى والأنفلوزا أحيانا تشفى من أمراض ميكروبية في الدم . وقد ظهر أن وجود حمى صناعية تفيد كثيراً من الأمراض . وأخيراً الدود الذى يظهر في الجروح المتقيحة القدرة ظهر أنه يفيد جداً ، وقد ينجى المريض من الموت ، ويستعمل الآن بطريقة منظمة طبية في المستشفيات في علاج الجروح الشديدة . وكلما تقدمت العلوم ظهر أن كثيراً من الأمراض نعمة على النوع الإنسانى .

خذ مثلاً آخر فصول السنة ، فقد يتساءل الإنسان ويقول : لو كان الكون مسخراً للإنسان لكان هناك فصل واحد تعتدل فيه الحرارة والرطوبة حتى لا يشعر آدميون بحر أو برد . والحقيقة أن تجارب عديدة في سويسرا وغيرها أثبتت أن المصابين بأمراض مختلفة إذا عاشوا مدة قصيرة في طقس فوق الجبال خال من الرطوبة والبرودة فصحتهم تتحسن بسرعة ، ولكنها بعد أشهر يقف هذا التحسن ، وقد تتأخر ، فإذا انتقلوا إلى طقس آخر ولو أقل اعتدالاً من الأول تحسنت صحتهم ، وبعد أشهر أخرى يزيد هذا التقدم إذا أعيدوا

إلى الطقس الأول الذى كانوا فيه . وهكذا فى تقلبات الجو
تنبيه للأعضاء . والصحة لا تكون على أكملها إلا بهذه
التغيرات الجوية .

وبالاختصار فكل شيء فى الحياة فيه عظة وعبرة ، ولم
يخلق عبثاً ، وما كان يظهر لنا أنه عديم الفائدة أو مضر بالإنسان
ظهر له فوائد ، ومع تقدم العلوم لا يبقى شيء إلا وتظهر ضروريته
للنوع الإنسانى .

وما أشد جهلنا وظلمنا إذا ما انتقدنا هذا الكون . وكان
شكسبير صادق القول عند ما قال "Sermons in stones and
"good in everything" أى فى الصخور عظة وفى كل شيء فائدة"
قال تعالى «وكأين من آية فى السموات والأرض يمررون عليها
وهم عنها معرضون» وقال «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»
والخلاصة أن الذى يتتبع سير العلوم وتطور النظريات
يوقن أننا لا نزال بعيدين كل البعد عن أسرار الكون ،
وأننا لم نصل إلى معرفة « حقيقة الشيء ذاته » على حد تعبير
الفيلسوف شوبنهاور « The thing in itself » . ولو أنصف
الإنسان نفسه لعلم أن الخير فى أن يؤمن بإيمان العجائز ، وأن
يكون دائماً شاكراً صابراً غير مجادل ، قائلاً « اهدنا الصراط
المستقيم »

فهرس

صفحة

كلمة لفضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الازهر	
كلمة للفيلسوف الاسلامى الاستاذ محمد فريد وجدى	
مقدمة المؤلف	١
الحياة تحت ضوء القرآن	١٣
أسرار الصيام الطبية	٢٠
الحمر وأضرارها	٢٥
إفرازات الجسم	٢٨
ميعاد ظهور الحمل	٢٩
ابن الأم ومدة الرضاعة	٣٠
النوم وضرورته للحياة ومشايبته للموت	٣٢
أضرار الربا	٣٥
إخراج الحى من الميت وعكسه	٣٨
الفرق بين المعجزات والاختراعات العلمية	٤٠
خلق عيسى وآدم	٥٣

صفحة

٥٣	تقريب المعجزة لفهم الانسان
٥٤	ضعف الانسان وجهله
٥٦	خلق الانسان
٥٨	الحكمة في تبديل جلود الكفار
٥٩	حكمة القرآن وعظمته
٦٠	حكمة الضوء وفوائده الطبية
٦٤	تفاوت المعجزات وتلطيف وقعها
٦٧	علم الغيب
٧٥	النوم وقربه من الموت
٧٦	بحوث دينية علمية
٧٦	الماء وضرورته للحياة
٧٧	منشأ فاحشة قوم لوط
٧٨	قصور الانسان
٨١	القرآن وعلم الأجنة
٨٤	تأثير العواطف في الجسم
٨٧	التفكير وخلايا المخ
٨٩	الدعاء أحد السنن الطبيعية
٩٦	شفاء سيدنا يعقوب وطريقته
٩٧	دعاء سيدنا ابراهيم

صفحة	
١٠٢	القرآن ولقاح الازهار والنبات
١٠٣	طريقة إنجاز إرادة الخالق
١٠٥	العسل في القرآن والطب الحديث
١٠٧	القرآن وبده الخلق والحياة والموت وما بعده
١٢٢	الانسان والسكون وحكمة المصائب والأمراض

تصحيح

ص	س	خطأ	صواب
١٤	٤	في كيتها	لا في كيتها
٥٠	٦	خلق سنة	فأساسها خلق سنة